

منشورات الاختلاف  
Editions El-Ikhtilaf

للإعلام والثقافة  
Publishing & Distribution L.L.C.



[www.mlazna.com](http://www.mlazna.com)



# أمير تاج السر صائد اليرقات

The hunter of the larvae  
Novel

رواية

[www.alriyadh.com](http://www.alriyadh.com)

[www.mlazna.com-RAYAHEEN](http://www.mlazna.com-RAYAHEEN)

**صائد اليرقات**

**The hunter of the larvae**

***[www.mlazna.com](http://www.mlazna.com)***

# صائد اليرقات

The hunter of the larvae

رواية

أمير تاج السر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الطبعة الأولى

1431 هـ - 2010 م

ردمك -؟؟-؟؟-9948-978

جميع الحقوق محفوظة للناس

**ثقافة** THAQAFAT  
للنشر والتوزيع ذ.م.م.  
Publishing & Distribution L.L.C.  
U.A.E.

أبرطلي هاتف: 6345404 (+971-2) فاكس: 6345407 (+971-2)  
ديي هاتف: 2651623 (+971-4) فاكس: 2653661 (+971-4)  
بيروت هاتف: 786233 (+961-1) فاكس: 786230 (+961-1)

إن دار ثقافة للنشر والتوزيع غير مسؤولة عن آراء وأفكار المؤلف. وتعتبر الآراء الواردة في هذا الكتاب عن آراء المؤلف وليس بالضرورة أن تعبر عن آراء الدار.

للتصديق وفرز الألوان: أبجد غرافيكس، بيروت - هاتف 785107 (+9611)

الطباعة: مطابع الدار العربية للعلوم، بيروت - هاتف 786233 (+9611)

إلى  
فيصل تاج السر  
وأساطيره وعوالمه الملونة.

***www.mlazna.com***

فإن شئت أن تسأل صورتك،  
في ليلة دافئة،  
بعينين غامضتين، والسؤال على الشفتين،  
فلا تبحث عن ذاتك في المرأة:  
إنه حوارٌ مخنوقٌ، لا تسمع منه شيئاً.  
بل انزل الى الشارع في بطاء، وابحث عن ذاتك  
بين الآخرين؛  
هنا تجد الجميع، وأنت بينهم.

مقطع أسباني

## - 1 -

سأكتب رواية. نعم سأكتب.

لا بدّ أنّها فكرة غريبة حقاً، حين ترد إلى ذهن رجل أمن متقاعد مثلي، أنا عبدالله حرقش، أو عبدالله فرفار، كما ألّقّب منذ الصّغر في الحي الذي نشأت فيه وكبر معي اللقب. لكنّها لن تكون غريبة أبداً، وقد قرأت مؤخرًا في عدد من الصحف والمجلات التي وقعت بيدي واستطعت قراءتها بلا تعجّل، أن بائع ورد بنغاليًا في مدينة نيس الفرنسية، كتب رواية عن الورد بطلتها امرأة من المهاجرات الإفريقيات، ظلّت تشتري الورد الأحمر عشرين عامًا من محلّه، من دون أن تغيّر لونه، وتخيّل البائع أنّها تبعته إلى حبيب ضائع في حرب بشعة. ونسج قصته، عن ذلك الإسكافي الفقير في رواندا، حين كتب رواية حول الحرب الأهلية الجماعية في ذلك البلد الإفريقي الفقير، لم يكتبها حتى مشعلو الحرب أنفسهم. وبائعة هوى ثائية في سايغون كتبت روايتين رائعتين، عن حياتها القديمة حين كانت نكرة في زقاق مظلم، والجديدة حين أنشأت مصنعًا صغيرًا لحلوى النعناع، والآن تترجمان إلى كلّ اللغات وينبهر بهما القراء.

لكنّ كيف جاءتني تلك الفكرة الغريبة، ولم أكن قارئًا طوال حياتي، ولا واسع الخيال إلا في مجال عملي، وما وقفت أمام مكتبة من قبل إلا حين يدخلها مشبوهٌ ملاحقٌ من أجهزتنا، أو نتحدث التقارير عن كتب ممنوعة تدخل البلاد خفية بواسطة مهربيين محترفين، وتوزّع

من تحت الطاولات. وقد أهداني المسيحي (ر. م)، صاحب مكتبة (أعلاف)، إحدى المكتبات القديمة المعروفة في العاصمة وكان صديقاً بحكم مراقبتي الطويلة له مرةً كتاباً عن السحر، وتجارب السحرة ترجم عن اللغة الفرنسية، ظللت أقلب صفحاته عدة أيام، ولا أحسُّ بمتعة حقيقية حتى وأنا أقرأ عن الساحر الهندي (راجندرا) الذي دخل مرةً قفصاً للدجاج وخرج حمار وحش متكامل الخطوط والنهيق، والفتاة اليهودية نيرا أزاموند التي شربت مئة رطل من زيت الخروع، ولم يصبها أي إسهال أو استفراغ ولا انفجرت مصارينها، والساحر النيجيري المعروف حاج بوكو، الذي غاب عن الجماهير المحتشدة في عرض يقيمه في أحد شوارع كانو، عدة دقائق فقط، شاهده فيها كثير من المعتمرين، يطوف معهم محرماً وحليق الرأس في مكة. وصادرت في أحد الأيام من مكتبة المسيحي (ر. م) نفسه خمسين نسخة من كتاب مجرم لا أدري كيف دخل البلاد بكل تلك النسخ. كان عن عادات الزواج في العالم، ولا أنكر أنه شدني قليلاً، وراقبني كثير من القصص التي وردت فيه، خاصة طلب الزواج من الفتاة برفع فستانها فجأة إلى ما فوق ركبتيها، الذي كان سائداً لدى إحدى القبائل الإفريقية. وظللت أسير في الطريق وأنا أتخيل فساتين عديدة لفاتنات يسرن أمامي، مرفوعة وأنا الذي رفعتها طلباً للزواج.

إنه ذلك الحادث المبالغ بلا شك، الحادث الذي فقدت فيه ساقِي اليمنى، ووظيفتي المحترمة في نظري، وكثيراً من المتع، وأصبحت عدة أشهر سجيناً في بيتي لا أغادره إلا مضطراً.

كنا في مهمة مراقبة، هكذا تسمّى حين نؤمر بها، واحدة من المهمات الممتعة لديّ ولدى زملائي من منتسبي جهاز الأمن الوطني، حيث لا حركة ولا ركض في الشوارع، ولا سؤال أو جواب، ولكن



بجرّد الجلوس على سطح عربية مكشوفة في ناصية مظلمة، ومتابعة الطريق. كانت ثمة معلومات عن لقاءات مشبوهة تجري في مزرعة في الضاحية الجنوبية من العاصمة، يملكها الرأسمالي (ص. ج)، أحد تجّار الحديد المعروفين. لم نكن نعرف ماذا يدور حقيقة في تلك المزرعة، أو إن كان ذلك الاشتباه، يخصّ أمن الوطن حقيقةً، أم مجرد حرق أخلاقي عادي أبطاله رجال ونساء عاديون، ولا يرقى إلى مستوى تتبّعه أمنياً.

وقفنا بعربتنا في أول الليل تحت تلة تقع أسفل بداية الطريق الذي يقود إلى تلك المزرعة، كان برفقتي مجتدّان آخران، أحدهما يجلس ساكناً خلف مقود السائق، والآخر معي على سطح العربة، وجهازانا اللاسلكيان المصنوعان في الصين، مفتوحان، نسمع من خلالهما الرطانة التي تصدر من القيادة، ونستطيع استخدامهما في نقل الوقائع أو تلقي الأوامر، حين تكون ثمة أوامر يجب تلقيها. كنت أثبت بصري على الطريق، أتأمل فراغه، وكان زميلي (ع. ب) مشغولاً بالعبث في هاتفه المحمول وتصفح الرسائل، والضحك للمرّة العاشرة على نكتة جاءته في رسالة، وكانت عن امرأة عراقية، غاب زوجها عن المنزل يوماً كاملاً ولا تعرف عنه شيئاً، وظلت تبكي بلا توقف ظانّة أنه تركها وذهب بصحبة امرأة أخرى، وقالت لها أمها: "تفاعلي خيراً يا بنية، لعل انفجاراً حدث في السوق أو مكان العمل ومات فيه".

فجأة ظهرت أضواء خاطفة لعربة قادمة من ناحية المزرعة تتجه نحونا، وبسرعة كبيرة، ارتبكنا أنا وزميلي الذي بثر ضحكته الحادية عشرة قبل أن يكملها، وصحت في جهازي اللاسلكي مبلغاً القيادة عن ظهورها، وسائلاً عن الخطوة التالية، وكانت أمراً قاطعاً أن نتحرك لملاحقتها فوراً. صعدنا التلّة في عنف، وقد سقطت أضواء عربتنا على الطريق كاشفة الحصى والرمل وعنزتين هزيلتين تتخبّطان في الليل. لا

أعرف ما حدث بالضبط لكنّ العربّة الأخرى استدارت فجأة عائدة من حيث جاءت وكانت من نوع الصالون، حمراء اللون. انقلبت عربتنا المكشوفة على ظهرها، ناثرة محتوياتها التي كانت أنا وزميلي (ع. ب)، والسائق، أسفل التلّة في الحصى المدبّ وغبت عن الوعي.

مات السائق في ذلك الحادث المباغت، أصيب زميلي (ع. ب) بالشلل الرعاش وفقدان الذاكرة، ولم يشف أبداً، وفقدت أنا ساقى اليمين حيث بترت في مستشفى عسكري بسبب الغرغرينا. وجاءت التقارير اللاحقة بعد ذلك، لتؤكد أن العربّة الصالون الحمراء التي كانت قادمة من المزرعة، تخص جهازاً أمنياً آخر، لم ينسّق معنا، وكانت في مهمة أرفع شأنًا من مهمتنا، لأن سائقها كان برتبة أعلى، وكان مشاركاً في النشاط المشبوه، يحاول تقصّيه من الداخل، وأفسدنا مهمته التي أوشت على النجاح، من دون أن نعلم عنها شيئاً.

لم أكن متزوجاً، ولا فكرت في الزواج قط برغم عشرات الفتيات اللاتي التقيت بهن في حياتي، ويمكن أن يملأن البيوت بالثرثرة والأطفال، كنت بلا إخوة ولا أخوات وكانت عمّي الوحيدة (ث) التي تقيم قريباً من بيتي مع زوجها مدللّ أحد الفرق الرياضية، تأتي في أيام إعاقتي الأولى وقبل أن أحظى بساق تعويضية تساعدني على الحركة، تقوم عمّي بمهمة تحريكى وإطعامي وغسل ملابسي وكيّها، ويرتعش بدنها كله، كلّما لحت سلاحاً مغبراً على الطاولة، أو سمعت جهازاً لاسلكياً يرطن بلغة لا تستطيع فهمها، أو شاهدت خطي الرديء على واحدة من الأوراق الصفراء التي كنت أعشق تدوين التقارير عليها. وحين تحرّكتُ أخيراً وأمكنتني أن أمارس حياتي الجديدة من دون مساعدة أحد، اختفت عمّي (ث) بحجّة آلام أسفل الظهر التي كانت قد شفيت منها، وعاودتها مرّة أخرى من كثرة الانحناء. تركتني أشاهد فراغي

الكبير مرسومًا أمامي في كلّ شيء حولي، وأفكر بلا توقف، وتأتيني  
أفكار غريبة ما كانت لتأتي لولا ذلك الفراغ..  
سأكتب رواية.

الفكرة تلحُّ بجنون، ولا أستطيع قهرها.. تلحُّ أكثر.. ولا أستطيع.  
سأكتب تلك الرواية بلا شك، وسأسعى لمعرفة كيف تكتب الروايات،  
لست أقل شأنًا من بائع الورد البنغالي في نيس، ولا الإسكافي الفقير من  
رواندا، ولعلي أتساوى في حجم الخطايا مع بائعة الهوى الثابتة تلك،  
فأكتب روايتين عن حياة قديمة عشتها بسافين كاملتين، وجديدة بساق  
خشبية. لن أقول خطايا حتى لا أبتئس، ولكن تجارب.. نعم تجارب  
كثيرة ومتشعبة.. كيف أبدأ؟  
حككت رأسي بعصبية، وعثرت على الجواب بعد تفكير عميق..  
نعم أعرف الآن من أين أبدأ.

اقتربت من مقهى (قصر الجميز)، أقدم مقاهي العاصمة، وأكثرها ضحيحاً وزحاماً، وعرضاً للوجوه المشبوهة في نظرنا، ونظر تقاريرنا اليومية التي كنّا نكتبها بمتعة غريبة. كانت في الواقع وجوهاً لكتاب يحتلون مواقع لامعة في الكتابة، وآخرين يقاتلون بحثاً عن مواقع تبدو لهم بعيدة المنال: شعراء متأنقين في سراويل وقمصان زاهية، وشعراء حفاة حتى من صنادل ممزقة، صحفيين يائسين، وسياسيين يدخنون ويرطنون ويتصارعون، ويرسمون للناس وطناً آخر غير الوطن الذي نعيش فيه ونعرفه، ونحبّه بكلّ حسناته وعيوبه. ودائماً ثمة نساء يتحلقن حول الضحيح، أو يساهمن في خلقه بضحكات كثيرًا ما رسمناها على تقاريرنا الأمنية باعتبارها ضحكات أفاع.

كانت قدمي اليمني المصنوعة محلياً من الخشب الأملس تعيق تنقلي قليلاً، لكنني اعتدت ثقلها منذ أن فصلت لي، أجرّها فتنجرّ، واستطعت بقليل من التدريب أن أنجز بها عدة كيلومترات من المشي متوسط السرعة، أنحسر بها في حافلات النقل الممتلئة بالفقر والبشر، وسبحت بها مرّة في النيل ساعتين كاملتين من دون أن تتخلخل، وعددت ذلك نصراً كبيراً. أذكر أول مرّة دخلت فيها ذلك المقهى القديم، كنت في بداية حياتي المهنية، شاباً وخشناً ومدرّباً على استخراج حمامات التآمر حتى من نسيمات الهواء وأجنحة الذباب وابتسامات الشفاه حين تبتسم. وقد كلّفت بمراقبة الحزبي الراحل (أ. س)، الذي ينتمي إلى حزب

ممنوع في البلاد، وكان ثراثاً كبيراً تحتشد حول ثرثرته الجماهير حتى لو  
ثرثر في قعر بئر، وكان معروفاً لدينا باصطياده للفقراء والمهمشين  
وتدريهم على لغة التمرد والانتفاض، وتجنيد عدد كبير منهم في حزبه  
الممنوع، ثم صمت فجأة. كان يمشي في الشوارع صامتاً، يحبي الناس  
ويرد على تحاياهم في صمت، يأتي إلى قصر الجميز كل مساءً ليجلس  
في أحد الأركان البعيدة صامتاً، ويغادر صامتاً، وفسر صمته لدى  
المسؤولين في الأمن الوطني، بأنه مؤامرة فاجرة ضد الوطن لا بدّ ستظهر  
نتائجها لاحقاً، وعلينا إحباطها. وجدته في ذلك اليوم غارقاً في صمته  
الكبير، أمامه كوب شاي ممتلئ لا يمدّ يده إليه، ونرجيلة خبت نارها  
من دون أن يلمسها.

تتبعت ذلك الصمت، انغرس في ساعات حتى غادر المقهى،  
وظللت أتبعه وأنغرس فيه أكثر من ثلاث سنوات، وأسلم إدارتي في  
كلّ يوم تقريراً ممتلئاً بتفسيرات معقدة للصمت كنت أحترعها بخيالي  
المحدود، حتى رحل الرجل بأزمة قلبية، من دون أن يترك في دفاترنا  
حرفاً ذا جدوى، لكنني كُرمت يوم رحيله، ووصفت مهمتي بالنجاح.  
كان قصر الجميز ممتلئاً بالزبائن في تلك الساعة، وقد جددت  
لافتته القديمة متأكّلة الحروف، بأخرى حديثة مطعّمة بالألوان  
والزخرفة، وأضواء النيون، إثر رحيل مؤسسه القديم، وبيع ورثته المقهى  
لأحد المستثمرين الجدد. لم أعر على أحد من جرسوناته القدامى أمثال  
عنتر والشفيع ورامبو السريع، أولئك الذين ساهموا في شهرة المقهى  
وجلب الزبائن فيما مضى، وعثرت على فتيات نظيفات من لاجئات  
إثيوبيا المحطّمة، يرتدين زياً بنياً غامقاً، شعورهن ورموش أعينهن  
مصبوغة بالبني أيضاً، وثمة لغة متكسّرة يخرجنها بصعوبة، يستقبلن بها  
الزبائن، وأياد رقيقة وطريّة، يقدمن بها القهوة والشاي والبخور وبعض

الخلويات المحلية، أو يشعلن بها نيران نرجيلة تخبو أمام أحد الجالسين. رحبت بي إحداهن بذلك الترحيب المغربي، أرادت أن تقودني إلى ركن بعيد ومنعزل حين شاهدتني وحيداً، لكنني كنت أبحث عن الروائي (أ. ت). أردت أن أجلس إلى طاولته التي أعرف بحكم مراقبتي لذلك المقهى منذ سنوات سعيًا وراء عدد من السياسيين، أنه لا يغيب عنها إلا نادرًا، لعلّي أعثر على ضوء ينير لي سكة البداية في مشروعني الملح: مشروع كتابة رواية.

كان الكاتب الذي لمع منذ عدة سنوات، وتناقل وسائل الإعلام اسمه باستمرار، موجودًا لحسن حظي في ذلك اليوم، جالسًا على طاولتين ملتصقتين، في وسط جمع كبير بعض الشيء معظمه من النساء الغارقات في الزينة، والوجوه المصبوغة، يخاطبونه باحترام، وتصف إحداهن روايته الأخيرة المسماة (على سريري ماتت إيفا)، بأنها رواية قد شارك الجن في كتابتها وليست رواية بشر، ولا بدّ أن ذلك القول كان إطرأً كبيراً بالرغم من أنني فهمته عكس ذلك، لأن اللامع (أ. ت)، انتصب في جلسته رافعاً رأسه أكثر، ومضيفاً ابتسامة غير ساحرة، لكنّها سحرت الآخرين.. ردد:

"هي كذلك.. نعم كتابة جن".

شعرت لوهلة بالغيظ من تقاعدي القسري بعد أن بترت رجلي إثر ذلك الحادث الذي ضاع فيه أحد الزملاء وضاعت بعده وظيفتي. في الماضي لم يكن أمر مثل هذا سينتهي بابتسامة ورأس مرفوع في غطرسة. كنت سأبحث عن إيفا التي ماتت على سرير لا بدّ كان ممتلئاً بالفتن والمؤامرات. سأبعثر ملاءاته ووسائده، وأغطيته، وأجر ذلك المعتوه إلى مصير آخر. لكنني ما لبثت أن هدأت. لست في مهمة رسمية، بل لست تابعاً لأي جهة تكلفني المهام، ولكن أبحث عن طريقة لكتابة

الرواية، ولا بد أن الروايات تكتب هكذا، وتمجد هكذا حين توصف بأنها كتابة من عمل الجن وليست كتابة بشر. ردّدت في ذهني مراراً عنوان الرواية حتى لا يضيع مني، واعتزمت أن أبحث عنها فيما بعد عند المسيحي (ر. م)، أو غيره من باعة الكتب لأرى كيف ماتت تلك الإيفا على سرير أحدهم.. وما تداعيات ذلك الموت، وربما يكون ذلك مدخلي للكتابة، أو ربما أقلدها وأنجز شيئاً يرفع من معنوياتي. الآن أنا قريب من عالم الكتابة بشدة، والمقعد الخشبي الذي سحبت من إحدى الطاولات الفارغة، وانحشرت به في طاولة الكاتب اللامع، يبدو قريباً جداً من مقعد الرجل، وأمكنني أن أستخرج بقليل من التقصي، من الوجه المتغطرس المبتسم بثقة، كثيراً من الانفعالات التي ربما تفيدني حين أصبح في مثل لمعانه ويلتفّ حولي الآخرون. لم يلتفت أحد إلى تلك الهرجلة التي أحدثتها بتزحزحي ومحاولة اقترابي من الكاتب، كانوا في لحظة انبهار عنيفة، وصاحبة فكرة مشاركة الجن في الكتابة، تبدو منفرجة الشفتين لطرح تصور آخر.. كان سؤالاً في الواقع.

- لكن كيف جاءتك الفكرة أستاذنا؟

هنا تراجع (أ. ت) على مقعده، مفسحاً مجالاً للسؤال حتى يدور في أذهان الآخرين كما يبدو، ثم انتصب من جديد. كانت صاحبة السؤال، تلاحقه بعينها في استرخائه وتصلده، وكانت فتاة من ذلك النمط المصنف في تقاريرنا الأمنية: فتاة مندفعة، يمكن أن تلج خلية للنحل بقدميها وهي تدري أنها خلية للنحل. في الماضي ما أسهل ملاحقتها وكتابة عشرات التقارير السخية عن سلوكها ومظهرها، ويبدو سرورال الجينز الأزرق باهت اللون الذي ترتديه ويخطّط جسدها بتفاصيل موحية، مخالفاً لقوانين الانضباط، وجاذباً بشدة للأحكام القاسية التي يصدرها قضاة محاكم النظام العام، مثل السجن

والجلد.. لن أفكر كثيرًا في هويّتها حاليًا، أنا خارج الخدمة، سأتابع مهمتي الشخصية... مهمة تعلم الكتابة. كان الكاتب يردّد:

الأفكار موجودة في كلّ زمان ومكان يا أصدقاء، في الواقع الأفكار موجودة حتى في رئاتنا التي نتنفس بها، ومصاريننا التي تهضم الطعام، في الطريق العام وإعلانات التلفزيون، وأباريق الماء ومواء القطط وكلّ شيء وفي عالم الكتابة تضيق كثير من تلك الأفكار، لأنها وقعت في أيدي موهومين لا موهوبين. ولدي حصيلة من الروايات كانت ستكون أفضل كثيرًا لو كتبتها أنا أو غيري من الأفتاذ.. روايات عربية وصينية ويابانية وحتى من جزر القمر، لكنّ (على سريري ماتت إيفا) برغم ذلك ليست فكرة عادية. إنها فكرة أن تضع الحياة والموت معًا على سرير واحد، ينامان معًا متغطّيان بنفس اللحاف ويصحوان معًا في الصباح. لقد كتبت تلك الرواية قبل عامين تقريبًا إثر عودتي من رحلة إلى موسكو، وما زلت أشعر بالفخر أنني كتبتها وأخاف ألا أكتب بعدها رواية بنفس القيمة.

كان كلامًا صعبًا للغاية، ولا استطعت أن أفهم أبدًا كيف توجد أفكار في مصارين مخصّصة لهضم الطعام، أو رئة وظيفتها التنفس، أو إبريق ماء ومواء قطّة. والحياة والموت اللذان يتغطّيان بلحاف واحد، ينامان ويصحوان معًا.. لا بدّ أن الكتابة أصعب مما تصوّرناها حين ألحّت عليّ فكرة أن أكتب رواية، أو لعلها مرض من الأمراض المزمنة غير القابلة للشفاء، ولا بدّ أن أولئك الكتاب مجانين بحاجة إلى أن يعالجهم أحد، أو يوضعوا في مصحات تعزلهم وتعزل أفكارهم عن العالم الواعي. شتّت بصري في المتحلّقين حول الكاتب، كنت أبحث عن استغرابهم من تلك المفردات المعقدة، لكنّ ثمة استغراب وإنما مزيد



من الإطراء، وصاحبة السؤال ابتسمت الآن بعمق، أخرجت من حقيبتها الجلدية المقشرة عند حوافها، مخطوطاً ضخماً مغلفاً بورق وردي، سلّمته للكاتب بعد أن قامت من مقعدها، وظهرت تفاصيلها الموحية.

روايتي الأولى.. (لحظة حب).. بحاجة إلى تقديمك أستاذي.. أهيتها بالأمس فقط وأنا واثقة أنها ستعجبك.

لم يبد (أ. ت) متحمساً كثيراً، لكنّه تسلّم المخطوط من يد بها سوار من القصدير اللامع، وعلى إهامها خاتم ذو فص أخضر، ألقي عليه نظرة متشائمة ثم وضعه على ركبتيه. لم يقل شكراً، وحنّنت أنه يتلقى باستمرار مثل تلك المخطوطات من كتاب مبتدئين، ربما ترعجه أكثر مما تمجّده ككاتب يسعى إليه الآخرون لتقديمهم. وفكرت حين أكتب روايتي الملحّة، أن أقدمها إليه في مغلف مشابه وأرى تشاؤمه وتعكّر مزاجه. لكنّ روايتي لن تكون قصّة حب بكل تأكيد كقصّة صاحبة الجينز باهت اللون والأسئلة، ذلك النوع من القصص التي في اعتقادي برغم عدم ثقافتني، لم تعد تبهر أحداً بعد أن أصبح الحب روتيناً يومياً يمارسه حتى المتسولون والمشردون في الشوارع. إنها رواية مختلفة وحتى الآن لا أعرف عنها شيئاً سوى أنني سأكتبها في القريب العاجل.

اقتحمت الجلسة إحدى الندالات الإثيوبيات، الفتاة نفسها التي رحبت بي بإغراء وحاولت جرّي إلى ركن بعيد، وعزلي. وضعت جمرًا جديدًا على نرجيلة منطفئة أمام أحد الجالسين، ثم ألقت بعدّة ابتسامات متباينة في ضيقها واتساعها ورحلت. وجدت نفسي أتحنح بقوة، ثم ألقي سؤالاً ضخماً ما ظننت أبداً أنني سألقيه يوماً ما، في حضرة كاتب لامع يتحلّق حوله المغمورون:

- ما هي طقوس الكتابة لديكم أستاذي؟

كانت كلمة طقوس التي نطقت بها، جديدة عليّ تمامًا لا أذكر أنني استخدمتها من قبل، ولا أعرف كيف نطّبت إلى ذهني في تلك اللحظة.

بغته حاصرني الوجوه كلّها بما فيها وجه الكاتب الذي بدا لي في تلك اللحظة وجه ناقة، ولا أدري لماذا وجه ناقة بالتحديد وليس وجه فرس أو أي شيء آخر. كانوا يتفحصوني باهتمام، يصعدون إلى وجهي ويهبطون إلى قدمي، ولعلّ توجسًا أصاب بعضهم من ظهور غريب بينهم في جلسة يعرفون تمامًا من يأتي إليها ومن لا يأتي، ولا بدّ أنّهم انتبهوا إلى ساقَي الخشبية التي لم يفلح ثوبي برغم طوله في تغطيتها تمامًا، والفتاة صاحبة سروال الجينز باهت اللون، ارتعدت بشدة وهي تسحب نظراتها بعيدًا، واستطعت أن ألمح قميصها الرصاصي المصنوع من قماش البوليستر، ينبض بعنف في الجانب الأيسر من صدرها.

- أتشرّف باسمك لو سمحت؟

كان (أ. ت) يسألني.

- عبدالله فرفار.. أقصد عبدالله حرفش.. وفرفار لقبني منذ الصغر.

- الاسم واللقب موحيان.. يا فرفار حرفش.. هل أنت كاتب؟

كان الجميع قد انشغلوا بي في تلك اللحظة، انشغلوا لدرجة أن أحدهم احترقت سيجارته بين أصابعه ولم يسقطها، وفتاة أخرى ترتدي ثوبًا بنفسيجيًا قصيرًا من الكتّان، انفتحت ركبتيها ولم تغلقهما. وشعرت بالفخر أن أشغل مثقفين في طاولة مثقفة. ليتني كنت كاتبًا بالفعل لأخرج كتابي في تلك اللحظة، أوقعه بقلم الباركر القديم الذي أحمله بعد أن عبّأته بالخبر، أوزعه على الجميع وأستمع بنظرهم

التي تسيل على غلافه وتحسدي، لكن روايتي ستكتب حتماً في يوم ما، وسأجلس على تلك الطاولة، أو طاولة مشاهة في مقهى آخر، ويأتي أحدهم بساق خشبية أو عين صناعية، أو أسنان مسوسة ليسألني عن طقوس الكتابة عندي، ومن أين أتى بالأفكار؟ وربما تأتي فتاة بمواصفات تحرق النظام العام لتقدم لي قصة حب بحاجة إلى تقديم، اتسلّمها في تشاؤم ولا أقول شكرًا. كان أ. ت قد استرخى الآن مغمضاً عينيه كأنه يرسم طقوسه على ذهنه أولاً قبل أن يخرجها على الملأ..

- محاولات أستاذي.

حسنًا يا صاحب المحاولات.

فتح عينيه أخيرًا

طقوسي في الكتابة تختلف من نص إلى آخر، هناك نصوص أكتبها بكامل أناقتي وأنا أجلس في بهو فندق راق أو صالة للمغادرين في أحد المطارات، نصوص أكتبها عاريًا في غرفة مغلقة ومسدلة الستائر، ليس فيها نسمة هواء، ونصوص لا تأتي إلا إذا تشردت في الشوارع ونمت في الأزقة، وتسوّلت من المارة، وحين كتبت روايتي قبل الأخيرة، (أبناء سعد المحتالين)، سرقت حافظة نقود من جيب تاجر مواش في سوق (مسواك) الشعبي، وقضيت شهرًا كاملاً في السجن أنهيت فيه النص. اقرأ تلك الرواية، وانظر إلى عمق التجربة، يا صاحب المحاولات.

كان جنونًا بلا شك، جنونًا زاد من انبهار المتحلقين حول الكاتب، ومن مغصني أنني نخرج الخدمة، ومن ثم ضاع مني تقرير مهم كان سيساهم في منحي ترقية أو علاوة حين أرتبه جيدًا، وأضيف إليه بعض التوابل. هل حقًا ما يقول ذلك الكاتب غريب الأطوار، أم أنها مجرد دعاة أراد أن يسحر بها أولئك المغمورين، ويبعد كاتبًا مبتدئًا عن

الدرب، إن جاز لي أن أكون كاتباً مبتدئاً ولا أعرف حتى الآن كيف أبدأ؟ أردت أن أسأله عن تاريخ تلك الحادثة، واسم تاجر المواشي الذي سرق حافظة نقوده، وفي أي سجن من سجون العاصمة الكينية قضى عقوبته، وكيف كان يكتب ولا بدَّ يشاركه في الحبس أناس آخرون لم يدخلوا السجن لخوض تجربة، لكنَّ تلك الأسئلة لا تبدو متعلّقة، وفي تلك اللحظة بالذات، سأل شاب بلحية مبعثرة وطاقيّة من سعف النخيل تغطي رأسه وتنزلق حتى نصف وجهه، وبين يديه كتابان أحدهما ضخّم بشكل لافت والآخر ضئيل أشبه بدفاتر التلاميذ:

(وعلى سريري ماتت إيفا).. روايتك الأخيرة الرائعة.. كيف كان طقس كتابتها؟

طقس مختلف.

ردّد الكاتب:

- مختلف جداً.. فقد كتبتها في بيت أمّونة البيضاء التي تعرفوها كلُّكم، استأجرت بيتها ومشاعرها ونزواتها شهرين كاملين، أنجزت فيهما الرواية. كنت أكتب بسرعة غريبة، وتزداد سرعتي كلّما نظرت إلى وجه البيضاء، لن تصدقوا بكلّ تأكيد، لكنّ هذا ما حدث.

في بيت أمّونة البيضاء مغنية الزار من أصل إثيوبي، التي تحظى بشهرة واسعة في البلاد، ويلتف حولها المهووسون من شتى طبقات المجتمع؟ لم يكن الرجل مجنوناً فقط، لكنّه خطر على الكتابة نفسها، حين يلطّخها في تلك الأجواء الموحلة، سجون وأزقة، وبيوت زار شيطانية. ولو جلست أكثر لربما سمعت عن رواية كتبها اللامع داخل واحد من المراحض العمومية. نظرت إلى ساعتي الوست اند القديمة ذات المينا الخضراء التي أرّتها منذ ثلاثين عاماً، ونهضت لأنصرف

متذرعاً بموعد تأخرت عليه. سأحلو إلى نفسي قليلاً في غرفتي أفكر،  
وقد أعود في يوم آخر بعد أن أكون قد تسلحت بشيء من الجنون  
لأسأل أو أستمع. كنت أجرُّ ساقي الخشبية مبتعداً عن ذلك الجنون،  
وأسمع صوت الروائي اللامع يطاردني:  
انتظر يا صاحب المحاولات.. سأحكي عن روايتي التي كتبتها في  
مرحاض عمومي مخصص للمجندين أثناء تأديتي الخدمة العسكرية.  
إنها واحدة من أفضل رواياتي.

### - 3 -

كنت أسكن في بيت صغير مجاور لأحد الميادين الرياضية في واحد من أحياء العاصمة متوسطة الحال. وبرغم الضجيج الذي كان يحدثه مرتادو ذلك الميدان الرياضي من لاعبين ومشجعين وإداريين، خاصة حين تكون ثمة مباراة فاصلة بين فريقين من الفرق الكبيرة، أو تكريم لأحد اللاعبين المعتزلين، إلا أنني لم أكن أكثرثر، على العكس من ذلك، كنت أتتبع الصراخ وأنا أفتح نافذتي التي تطل على الملعب مباشرة، أضحك من بعضه في متعة وأستخرج من بعضه عبارات يمكن أن تكون خرقاً سافراً للنظم الأمنية، وربما أتحرّك إلى الميدان وأنا أحمل قلمي الباركر وأوراقى الصفراء وخططي في المراقبة. وفي إحدى المرات وفي مباراة حامية ممتلئة بالصراخ والتشجعات، سمعت مشجّعاً مهتاجاً يصف لاعباً أضاع هدف الفوز لفريقه، بخيانة الوطن. علق اسم اللاعب في ذهني على الفور، وانكتب في إحدى أوراقى المرسلة إلى إدارتي، لكنّ أحداً لم يسأله أبداً ووُبّخت بشدّة على ذلك التقرير، ذلك أن المشجع كان يقصد فريق (الوطن) وكان اللاعب الذي أضاع الفوز من بين صفوفه.

كان البيت مكوّناً من غرفة واحدة مطليّة باللون الرصاصي، وصالة ضيقة بلا لون، وحمام، وركن صغير أستخدمه مطبخاً. وبرغم قلّة عدد زوّاري الذين كان أغلبهم من زملاء الخدمة فيما مضى، أو بعض معارفي القليلين، فقد حرصت على جعل صالتي الضيقة أنيقة

دائمًا، بها عدة كراسي جلدية من صناعة الصين، وطاولة من خشب  
النيتك الراقي ومزهريتان كبيرتان فيهما ورد اصطناعي، بينما عدة العمل  
التي أستخدمها من أوراق وأجهزة وسلاح، مخبأة في غرفتي لا يطلع  
عليها أحد. وكانت عميت (ث) من القلائل الذين اطلعوا على تلك  
العدة، ولكن بعد أن انقطعت حاجتي إليها، ثم لترسل الإدارة أحد  
الزملاء ليستلمها بعد ذلك تاركًا لي الأوراق فقط، والتي سأستخدمها  
قطعةً في كتابة الرواية، فقد اعتدت على شكلها، ولملمسها وأعتبرها  
أوراقًا موحية.

على باب بيتي، استوقفني المشجع (ع. د)، كبير مشجعي فريق  
اللبلاب المتربع على صدارة الفرق منذ زمن، وكان أيضًا حفارًا  
متمرسًا للقبور يمارس نشاطه في مقبرة عمران، في أحد أطراف  
العاصمة. وقد كُرم مؤخرًا بواسطة رئيس البلاد، بوصفه شخصيةً  
وطنيةً تستحق التكرم.. كان يرتدي زياً أخضر مما يرتديه رجال  
الطرق الصوفية، وتدلّني من عنقه مسبحة ضخمة من ثمار اللالوب،  
بينما حول رسغه الأيسر حلقة معدنية يعتقد الناس أنها تشفي من داء  
الروماتيزم وتنتشر كثيراً في البلاد. كان يسألني إن كنت قد شاهدت  
حفل تكريمه، وصوره برفقة الرئيس، ولم أكن قد شاهدت شيئاً من  
ذلك. سألني إن كنت أرغب أن أرى الصور، وأجبتته بالنفي.  
أحسست به محبطاً، ينسحب من أمامي متجهًا إلى الميدان الرياضي،  
وتبرز من جيبه صحيفة مطوية لا بدّ أنها تحوي بعضاً من تلك  
الصور. فكرت أنه لا بدّ ينفع شخصية روائية، وصممت أن أضيفه  
إلى روايتي حين أكتبها، ولكن ترى ما موضوع تلك الرواية، وكيف  
أدخل إليها؟ وهل سيظهر فيها (ع. د) مشجعاً رياضياً، أم حفاراً  
للقبور؟ أم الاثنين معاً؟

فجأة لحت عمي (ث) تأتي راكضة من شارع جانبي برغم وزنها الزائد، وعمرها الذي تجاوز الستين، وتوجّست. كانت آخر مرة رأيته فيها منذ أكثر من شهر، حين زرتها بمناسبة عيد الأضحى، وشاهدت على سطح بيتها عددًا كبيرًا من أطباق الالتقاط، عرفت فيما بعد أنها محطات تقوية للإرسال، تخص إحدى شركات الاتصالات، واستأجرت سطح بيت العمة لتركيبها. وقال لي زوجها المدلّك بفخر، إنه حصل على ذلك الامتياز بواسطة أشخاص ذوي نفوذ، ولم يكن مصادفة.

وقفت العمة أمامي وهي تلهث، رددت من بين لهاثها:  
الحقني يا عبدالله.. أرجوك الحقني، زوجي في حالة إغماء.. سقط في صالة البيت فجأة، ولا أعرف ما حدث له.  
لا بدّ أنها أفسدت يومي، وأطارت أفكارًا كثيرة اكتسبتها من جلوسي على طاولة اللامع (أ. ت)، وكنت سأغرق فيها، وأنا أبدأ سكة الرواية، لكنّ لم يكن ثمة مفرّ من نجدتها، ولا أنسى برغم اختفائها عنّي زمنًا طويلًا بحجة آلام الظهر، تلك الأيام التي ساندتني فيها حتى وقفت من جديد. وجدت نفسي أقحم ساقي الخشبية في محاولة للركض، أنجزتها بصعوبة، وكنت أقف بعد كلّ عدة خطوات، أتحسس الساق وأخشى أن تكون قد انفلتت، وحين دخلنا بيت العمة أخيرًا، كان الأمر مختلفًا تمامًا، وجدنا زوجها المدلّك الرياضي، جالسًا في صالة البيت الكبيرة، يرتدي ملابس داخلية قطنية من ماركة جيل المصرية، يدخن سيجارة برنجي محلية بتلذذ ويشاهد على تلفزيون موضوع أقصى الصالة، شريطًا سينمائيًا من إنتاج شركة فوكس للقرن العشرين، تبدو فيه الممثلة الأمريكية القديمة أفا جاردنر، فتاة هيفاء تصرخ على قمة جبل متصدع، بينما حبيب مفزوع يلقي إليها بحبل. لقد شاهدت ذلك



الشريط عدّة مرّات من قبل، وأعرف أن الحبل سينقطع، وتسقط  
النجمة على ساعدي الحبيب في نهاية سعيدة.

ما الأمر؟

صرخت في وجهه وأنا حائر، وأحسّ حلقي يابساً، ونبضي  
متسارعاً، وساقِي اليسرى السليمة، ثفنّ متوجعة.

كان المدلّك يضحك:

حصلت بعد طول انتظار على دور رهيب في مسرحية "مسك  
الختام" التي ستقدّم قريباً على خشبة المسرح القومي. إنّه دور رجل  
عجوز يصاب بحالة إغماء حين يلتقي حبيبته بعد فراق طويل،  
وكنت أتدرّب عليه. لقد نجحت في الدور أليس كذلك؟

كان يخاطب العمّة ناظرًا إليها من طرف عينه، وابتسامة التبغ  
التي تغلف أسنانه الآن أكثر اتساعاً. وقد كان المدلّك مغرماً بالتمثيل  
منذ شبابه، وشديد الاعتزاز بقدراته، لكنّه لم يحصل على دور قط من  
قبل بالرغم من مطاردته للفرق المسرحية، وإزعاجه لكتّاب الدراما  
والمخرجين. ومنذ أحد عشر عاماً دخل السجن عدّة أيام، لأنّه اقتحم  
عرضاً مسرحياً كبيراً، وممتلكاً بالنجوم حاملاً صندوقاً من الخشب،  
وقام بدور ماسح أحذية أصم يطارد أحذية الممثلين وهو يصدر  
إشارات وأصوات مبهمة، ولم يكن ذلك الدور موجوداً في النص  
أبداً. شاهدت العمّة حانقة تتحرك إلى آخر الصالة وتعود حاملة  
مكنسة طويلة ذات يد خشبية، والمدلّك يرفع يديه، يتّقي بهما ضربة  
أحسّ بها على وشك الوقوع، وأنا أنسحب إلى الباب قبل أن يبدأ  
العنف الذي كان جزءاً من روتين بيت العمّة، عنف مؤقت ووثام  
كبير. المدلّك يحب عمّتي بجنون وهي تحبه بجنون أبيضاً، فقط تودّ لو  
أقلع عن التدخين، ومطاردة المخرجين المسرحيين ليوظفوه في أدوار

غبية. وأذكر أنها رجتني مرة أن أحتجزه في أحد دهاليزنا المظلمة حتى تستريح من وجهه وأفعاله، لكنّها عادت وبكت ورجتني ألا أفعل. وكان المدلّك على وشك أن يختفي إلى الأبد، وبحوزتي تقرير من أربع كلمات فقط، كتبته بلا مشاعر ولا إحساس بالذنب: "يتخاير لصالح دولة أجنبية".

المدلّك شخصية روائية، لا بدّ أنه كذلك، ولو وجده اللامع (أ. ت)، حتمًا سيكتبه في رواية تشبه رواية إيفاء، يكون عنوانها: المسرحي الفاشل. فكّرت في العنوان مرة أخرى ووجدته عنوانًا غبيًا وبائسًا، قد يرد إلى ذهن صاحبة الجينز باهت اللون أو ذهني أنا الذي لا أملك خيالاً، لكنّه لن يرد إلى ذهن كاتب كبير ولا مع مثله. سأوسّع خيالي بلا شك في الأيام القادمة وسأعثر على عنوان يناسب الرواية التي يمكن أن يدخلها المدلّك زوج العمّة. كنت أنجرّ في الطريق ببطء عائداً إلى بيتي، أشاهد الطريق مشغولاً بالفوضى، وعدداً من صبية المدارس المراهقين، يربطون كلباً هزياً إلى جذع شجرة، ويركلونه بالأقدام، وعامود الإنارة الوحيد أمام بيتي يبدو مائلاً وعلى وشك السقوط، وتحتك أسلاكه ببعضها بين حين وآخر، محدثة شرراً.

كنت أملك في خزانة ثيابي الموضوعة في غرفتي الوحيدة، بذلتين فصلتني منذ وقت طويل عند (خ. ر) الذي ينحدر من غرب البلاد، ويمارس الخياطة أمام أحد دكاكين الأقمشة في وسط السوق الكبير. كانت إحدى البذلتين زرقاء غامقة، والأخرى قطيفة رمادية. لا أذكر متى ارتديت بذلة آخر مرة وفي أي مناسبة كان ذلك. ولا توجد في حياتي مناسبات تستوجب الأناقة، لكنّي أخرجت البذلتين من الخزانة. وجدت على الزرقاء بقعة كثيفة من دهن جاف، وحمّنت

أنني لا بدّ قد ارتديتها في حفل غداء أو عشاء أكلت فيه لحمًا مدهنًا، بينما الرمادية نظيفة تمامًا، وتبدو لامعة برغم عدم الاستعمال. نزعْتُ ثيابي وحاولت ارتداؤها، لكنّها دخلت إلى جسدي بصعوبة، وصمّمت أن أعود بها إلى (خ. ر)، أوصيه أن يعيد تفكيكها، وخياطتها على قياسي الجديد بعد أن ترهّلتُ وبرز بطني الذي كنت أحتفظ به ضامرًا لفترة طويلة. كنت أودُّ تتبّع طقوس الكتابة عند (أ. ت)، ومنها طقس يكتب فيه بكامل أناقته في هو فندق راق أو صالة للمغادرين في أحد المطارات. بالنسبة للكتابة عاريًا لا توجد مشكلة، والكتابة مشردًا في الشوارع، لا توجد مشكلة، والكتابة على سطح قطار أو حافة ترعة أو عند مغنية الزار أمّونة البيضاء، لا توجد مشكلة أبدًا، وأستطيع بما لي من صداقات قديمة بالسجون والسجانين أن أقضي شهورًا في السجن، إن كانت روايتي التي سأكتبها تستدعي ذلك. طويت البذلة، وضعتها في كيس من أكياس التسوّق الكبيرة، لا أعرف كيف دخل بيتي، ولم أتسوّق من قبل بحجم ذلك الكيس، حيث كان تسوّقي محدودًا جدًّا، ولا بدّ أن الكيس أتى برفقة العمة (ث)، حين كانت تزورني وتطعمني وتغسل ثيابي حتى استطعت النهوض من جديد.

وقفت أمام الخياط (خ. ر)، والكيس في يدي. كان مشغولًا بتناول شطيرة من الجبن الأبيض تناثرت بعض محتوياتها على قميص أصفر عالق بماكينته من دون أن ينفضها. رفع وجهه إلى وجهي ولم يتسّم. وضع الشطيرة على القميص ومد يداً خشنة مقشرة الأصابع، لمصافحتي من دون أن ينهض من مكانه. في الماضي كان الخياط يترك ماكينته، يهرول باتجاهي حين أظهر في مرمى رؤيته. يحين عبارات لا يحياّ بها إلا كبار الشخصيات في الدولة، ويبدو متلهفًا لأخذ قياساتي

بدقة، وغالبًا ما يسلمني قميصي أو بنطلوني الذي أحضره قماشًا، مخيطًا ومكويًا قبل أن أغادر السوق، وأحيانًا يتنازل عن أجرته بإصرار غريب. لن أتذمر من ضياع وظيفتي وساقلي، ولن أعتبر اليد الباردة التي مدها الخياط، ولم تبق داخل يدي سوى لحظة فقط، يدًا باردة. أنا في مهمة تغذية الطقوس لأكتب رواية، والآن يعرف الجميع أنني خارج الخدمة، ووطّنت نفسي على هذا. فتحت الكيس وسلمته البذلة طائبًا تعديليها حتى تناسب قوامي المعدل، تسلمتها بلا حماس. وضعها أسفل مقعده المصنوع من البلاستيك الأبيض، وبحركات غير متحمسة أيضًا، ربط مقياسًا من القماش على صدري وخصري وفخذي وظهري، ودوّن قراءاته على ورقة متسخة، كانت مكورة على الأرض أمامه، التقطها وقام بفردها.

عد بعد عشرة أيام.

كان يقول وقد تناثر رذاذ مختلط بالجبن من فمه على البذلة.

- لماذا عشرة أيام في تعديل بسيط لا يستغرق أكثر من ساعة؟
- من قال لك تعديلًا بسيطًا؟ هذا أصعب من التفصيل الجديد.. عد بعد عشرة أيام أو نخذ بذلتك واذهب إلى خياط آخر.. أمامي عمل كثير يا فرفار.

كانت المرة الأولى التي يخاطبني فيها بلقبي الذي لا يستخدمه إلا زملاء الخدمة أو أصدقائي القدامى ممن اخترعوا اللقب أو عاصروا اختراعه. لم يكن ثمة حيلة أتعجل بها الخياط. والآن عاد إلى شطيرة الجبن، يغازها ببطء ويقضم قضمات صغيرة، وقد ابتل القميص الأصفر العالق بماكينته ببقعة دهن كثيفة لا أدري كيف سيمحوها فيما بعد. سأعود بعد عشرة أيام، وقد تمتد تلك العشرة إلى عشرين يومًا أو شهرًا كاملًا. سأؤجل طقوس الكتابة الأنيقة وأحاول العري أو التشرد،

وأظني قد بدأت بالفعل، لأن أحد المارة توقف برهة أمامي ملقياً نظراته على ساقي الخشبية، ثم ماداً يده إلى جيبه، ليخرج منه قطعة نقد معدنية من فئة العشرة قروش، حشرها في يدي وانصرف وهو يردد: "دعواتك.. دعواتك يا حاج".

كنت أقف أمام مكتبة (أعلاف) التي يملكها المسيحي (ر. م)،  
وتعتبر واحدة من أقدم المكتبات في البلاد، ومصيدة سهلة كنا نعثر فيها  
على الأعداء من دون مشقة أو مطاردات في الشوارع. ولطالما كنت  
مستغرباً من اسمها الذي لم يبد لي أبداً اسم مكتبة، ولا حتى اسم جزارة  
يباع فيها اللحم. لكن (ر. م) الكاثوليكي الذي لا يعرف عن  
الكاثوليكية إلا اسمها، كان حاضراً بإجابته عن ذلك الاسم باستمرار،  
وظل يفسره لكل سائل طوال أربعين عاماً هي عمر المكتبة.. "القراءة  
علف الذهن يا جماعة، علف الذهن يا أصدقاء، لا أعني أن القراء  
يشبهون البهائم، ولكن الكتب تشبه العلف". وفي بحثها الدؤوب عن  
المواد الغربية وغير المألوفة في كل بقعة من بقاع العالم الواسع، وصلت  
قناة ديسكفري الفضائية مرة إلى البلاد، وظهر المسيحي (ر. م) في أحد  
برامجها التثقيفية، غارقاً في وسط كتبه، يحاول أن يفسر معنى الاسم  
بالإنجليزية ضعيفة، ومقدم الحلقة يبدو صبوراً، يقلّب في الكتب أثناء  
الحوار، ويسأل عن آخر علف وصل إلى مكتبته، ومن هي أشهر عنزة  
تتغذى من أعلافه. وبالرغم من أن تلك الحلقة لم يعد بثها قط بعد ذلك،  
إلا أنها ظلت فترة طويلة حية في المكتبة، ثبت من جهاز فيديو قديم كان  
مربوطاً إلى تلفزيون قديم أيضاً، في ركن واضح من أركان المكتبة.

كانت للمكتبة واجهتان زجاجيتان تطلان على الطريق العام، في  
مكان مزدحم من وسط البلد، وتحتضنان عشرات الكتب التي كان

بعضها من إنتاج كتاب محليين، ودور نشر محلية، وبعضها جُلب من خارج البلاد بطريقة شرعية أو غير شرعية. شاهدت كتباً للطبخ رسمت على أغلفتها موائد عامرة لا تشبه موائدنا التي نأكل منها: كتباً في فن التطريز وكمال الأجسام، والعلاج بالرقية والحبة السوداء، وكيف تصبح قانونياً من دون أن تدرس القانون، وامتلكي خصر ناعومي كامبل خلال أسبوعين فقط بلا ريجيم. وشاهدت نسخة وحيدة من كتاب كان يبدو أنه واسع الانتشار، لأن ورقة مسطرة كتب عليها: النسخة الأخيرة. كانت موضوعة بجانبه، كان اسمه (شرق وغرب وضرب)، للمؤلف لم أسمع به من قبل. والواقع أنني لم أكن ضليعاً في معرفة المؤلفين حتى أعرف إن كان صاحب الشرق والغرب والضرب، مشهوراً أم لا. قرّرت أن أشتري ذلك الكتاب فوراً وأحاول قراءته كاملاً مهما كان موضوعه، إضافة إلى رواية (على سريري ماتت إيفا) التي جئت حصيصاً من أجلها، وربما يتذكر المسيحي أنه كان يعرفني من قبل، فيهديني كتباً أخرى أتسلح بها في مشواري الذي بدأته: مشوار كتابة رواية. لم تكن إيفا موجودة على أي من الواجهتين الزجاجيتين لا حية ولا ميتة، ولا عثرت على رواية أخرى، وأعرف أن ثمة رفّاً مخصّصاً للروايات يوجد داخل المكتبة طالما نيشته من قبل لأسباب مهنية لا علاقة لها بالقراءة أو الكتابة.

دخلت إلى المكتبة في ثقة، كانت ثمة مراهم مكشوفة الرأس وترتدي عباءة سوداء مطرزة الحواف بلون ذهبي، تسأل عن آخر إصدار من روايات عبير الرومانسية، وشاب شديد التحافة، يقلب في كتاب اسمه (حركات التحرر في العالم، ما لها وما عليها)، ورجل في منتصف العمر، يحتضن كتاب (الجنس في حياتنا) الذي كان من

الكتب غير المصرح بها، وتباع خفية، وهو يفتح حافظة نقوده، والمسيحي (ر. م)، يتنقل بين الثلاثة، يفتح فمه ليرد على استفسار المراهقة، أو يستعد لتسلم ثمن (الجنس في حياتنا)، أو يمتدح كتاب حركات التحرر مشجعاً الشاب النحيل على الشراء. نبهه صوت ساقي الخشبية ترحف على بلاطه المغسول، وتفوح منه رائحة الديتول، فالتفت بسرعة، وكأنه تشاءم أو امتعض أو تنفر، لأنه قبض الثمن من الرجل الذي اشترى الكتاب الجنسي مسرعاً. خاطب المراهقة في غلظة، بأنه لا يبيع روايات سخيفة مثل هذه في مكتبته، وخطاً نحو الشاب النحيل ملتقطاً الكتاب من يده، في نفس اللحظة التي التقط فيها مفاتيحه من الطاولة، ونظر إلى ساعته العتيقة من ماركة جوفيال، وكأنه يهم بإغلاق المكتبة.

قلت ببطء وثقة وأتعمد عدم تحيته:

أعطني تلك النسخة المتبقية من (شرق وغرب وضرب)، ورواية (على سريري ماتت إيفا) من فضلك.

ماتت من؟

رفع حاجبيه في استغراب.

- ماتت إيفا.. ألا تسمع؟

قلت بثقة أكثر.

ماذا لديك ضد كاتبها؟

كان يسألني بصوت لم يكن يجرو ليصبح غليظاً وعدائياً هكذا في الماضي. ولطالما حرّرت له مخالفات كبرى اقتربت به من أبواب السجون، أغلقت مكتبته أياماً طويلة، وصادرت كتباً عديدة كان يعتمد عليها في تحصيل بعض الربح، وآتي في كلّ مرّة لأجده مبتسماً ونشيطاً ورائق المزاج، ويركض بين زبائنه وغلاية الماء الموضوعة في



أحد الأركان، ليصنع لي قهوتي التركية بسكر متوسط، وربما ينصحني بالقراءة، ويدعوني للغداء في منزله وأهديني مرة كتاب (السحر وتجارب السحرة) حتى أستمتع. وحين تلفزته قناة ديسكفري الفضائية، حكى باستفاضة مستخدمًا إنجليزيتة الضعيفة عن تعاون السلطة المحلية معه وأنها لم تصدر من رفوفه كتابًا قط، وكان كاذبًا بالطبع.

تعرف أنني لست في الخدمة.

قلت رادًا على استخفافه، وأحسُّ بشيء من الضعف، وأني ما كان يجب أن آتية متقاعدًا وبذلك الساق البديثة، وكان يجب أن أرسل له أحد زملائي الذين ما زالوا يعملون وينبشون ويستطيعون إغلاق مكتبته وفمه الذي يخاطبني الآن بتلك الوقاحة. لكنَّ زملائي أنفسهم للأسف ما عادوا زملاء ولا متوافرين من حولي، وما عادوا حتى يردُّون على هاتفي حين يظهر رقمه ملحقًا على شاشات هواتفهم المحمولة. وحين أتذكر أحيانًا زميلي (ص. ج) الذي أصيب بالشلل الرعاش وفقدان الذاكرة، من جراء الحادث الذي تعرضنا له معًا، واذهب لألقي عليه نظرة، أجد امرأته تبكي وحيدة، وتحدث عن فرار الجميع من حول زوجها الذي أفنى عمره في الخدمة، ولم يجد من يمد يده حين احتاج إلى نقل للدم بسبب الأنيميا.

لن أبتئس.. أترجى البؤس أن يرحل حتى أستطيع بداية مشروعني الجديد.

نعم.. نعم.. لست في الخدمة أعرف.. لكنَّ دودة خدماتكم لا تموت بسهولة.. أعرف كثيرًا من زملائك خارج الخدمة منذ عشرين عامًا، وما زالوا يأتون وينحنون تحت طاولتي، يوسِّخون الكتب.. لماذا تريد كتاب إيفا يا فرفار؟

صدمت للمرة الثانية من لغته، وصدمت أكثر من استخدامه للقب لم يكن من ضمن استخدامات العامة أمثاله، ولم يستخدمه حتى حين كان صديقاً مفترضاً تصادقنا قسراً أنا وهو.

أحسست أنني قد أجن أو أموت أو أفقد رغبتني في كتابة الرواية، من تلك الصدمات المتتابة إذا ما تركتها تتغلغل في أعصابي، ومن ثم تجاوزت عدائتي، وطلبت الكتاين ثانيةً وفي لهجة قاطعة هذه المرة وأنا أخرج حافظة نقودي، ألّوح بها أمام وجهه الذي كان وجه سبعيني مهلهل التقاطيع وفيه شامة بنية على الجانب الأيسر. خطأ (ر). (م) إلى الواجهة الزجاجية التي بها كتاب (الشرق والغرب والضرب)، فتحها من الداخل بمفتاح صغير، التقط الكتاب وأغلقها مرة أخرى، ثم قصد رفّاً مكتوباً عليه بخط متعرج: "روايات مختلفة.. عربية ومترجمة". سحب من وسطه (على سريري ماتت إيفا). وضع الكتاين داخل كيس من البلاستيك، مكتوب عليه بالأزرق: مكتبة أعلاف، ثم سلمني الكيس، وتسلم مني مبلغاً ليس سهلاً، جعلني أستغرب من أولئك القراء المجانين الذين يبدّدون نقودهم في القراءة، وخفت أن أصبح واحداً منهم ولا أملك سوى معاش التقاعد الذي يأتي من إدارتي السابقة، وإيجاراً قليلاً يأتي من بيت صغير ورثته عن أبي وتسكنه عائلة مهاجرة من غرب البلاد المشتعل بالحروب. تملكني الفضول وألقيت نظرة على رفّ الروايات وكان ممتلئاً بأغلفة ملونة وجاذبة، ونحلت للحظة روايتي التي سأكتبها، تحتل مكانها في ذلك الرف قريباً.. قريباً جداً.

خرجت من المكتبة إلى الطريق، وأنا أتشوّق إلى البيت حاملاً واحداً من أسلحة الكتابة. سأفكّك السلاح بتأنٍّ، وسأذهب إلى قصر الجميز مرة أخرى بعد أن أنتهي، أجلس إلى طاولة (أ. ت)، أناقشه في

موت إيفا على سريريه أو سرير بطله، وأنا واثقٌ بأنه سيستمع إليّ في غطرسة، ويستمع الآخرون احتراماً لاستماعه، ولن تتوجّس صاحبة الجينز باهت اللون من ساقِي الخشبية هذه المرّة وينبض صدرها بعنف. ستعتاد وجودي بينهم كما لو كنت واحداً منهم. كانت المراهقة التي سألت عن روايات عبير ما زالت تتسكع عند واجهة المكتبة، تتفحصها كتاباً كتاباً ويدها على خصرها، ورجل مسنّ يرتدي قميصاً أبيض عليه شعار شركة موبيل للنفط، يقف خلفها مباشرة، يتأملها أكثر مما يتأمل الكتب ويلعق شفّتيه بلسانه، والشاب النحيل الذي لم يشتر كتاب حركات التحرر، واقفاً في الركن الآخر من الطريق، وبرفقتة صبية تضحك بجرأة وترفع يدها بين حين وآخر، تعيد تغطية رأسها الذي ينزلق من فوقه غطاء الحرير الأخضر.

كان المشجع حفار القبور (ع. د)، يتسكّع هذه المرّة أيضاً أمام بيتي والميدان الرياضي، ولم تكن ثمة مباراة في ذلك اليوم تبرر وجوده. صحيفته مفرودة بين يديه، ويتأملها بشغف وهو يتسّم، ونادى بصوته الكبير الذي جعله مشجعاً مميزاً، مجموعة من الشباب كانوا يتسابقون على مقربة. أغرق وجوههم في الصحيفة غير عابئ بذلك الاستياء الذي ظهر على تلك الوجوه، وخفت أن يكون قد جن من جراء التكرّم الذي جاءه فجأة، ولم يكن لديّ وقت لأتأكد، ومن ثمّ أسرع بالدخول إلى بيتي وأغلقت بابه بالمفتاح، لكنّ أحداً لم يطرق.

جلست على أحد الكراسي الجلدية في صالتي الضيقة، بعد أن نزعَت ساقِي الخشبية عن جسدي، ووضعتها على كرسي آخر. فتحت كيس الأعلاف، وأخرجت الكتابين في شوق، كان كتاب

(الشرق والغرب والضرب) المترجم عن اللغة الإنجليزية، مجموعة مشاهدات مختلفة، سجلها كاتبه الأمريكي في رحلات دووبة حول العالم امتدت عامين، كما كتب على غلافه الأخير. وقد نهت كلمة الغلاف القارئ المفترض للكتاب، أن الضرب ليس دائماً بالعصا، أو السوط، ولكن يكون أحياناً باللغة. ستضربك لغة هذا الكتاب عزيزي القارئ بلا رحمة، فاحم ذهنك جيداً قبل أن تبدأ. استسختت تلك الكلمة التي لم أفهم مغزاها حقيقة، وفكرت أني لن أسمح بكتابة مثلها أبداً على غلاف كتابي. كانت رواية إيفا الآن بين يدي، ألقبها في وله، وأنامل لوحة الغلاف التي تمثل فتاة شقراء مبعثرة الشعر، ترقد على سرير وردي بين قلب أحمر ونصل سكين. إنها ترجمة حرفية بلا شك للموت والحياة اللذين ذكرهما (أ. ت)، حين قال إنهما يرقدان على سرير واحد، متغطيان بنفس اللحاف.. الآن، فقط، فهمت عباراته التي بدت لي عصيئة على الفهم حين سمعتها في قصر الجميز، لكنه ليس فهماً كاملاً وسأسعى لامتلاكه بلا شك. لم تكن الرواية ضخمة من نوع تلك الكتب التي تجعلك تقلب الصفحات الأخيرة أو التي في الوسط أولاً، كما أسمع بعض المثقفين يقولون ذلك، وبدت لي مشجعة جداً لقراءتها، والدخول عبرها إلى عالم الكتابة، وربما أجهد نفسي قليلاً، وألثمها في نفس واحد، كما يقولون. أغلقت هاتفني المحمول، تناولت ساقبي الخشبية، ربطتها إلى جسدي مرة أخرى، عطوت أولاً إلى الهاتف الأرضي، انتزعت أسلاكه من مكانها، ثم إلى الركن الذي أستخدمه مطبخاً، صنعت كوب شاي ساخناً، أضفت إليه قليلاً من النعناع. وضعته أمامي بعد أن رشفت منه عدة رشقات، ثم فتحت الكتاب. هربت من رقم الإيداع وحقوق الطبع المحفوظة والتصميم والجرافيك وعبرة التحذير من النسخ أو إعادة الطباعة، بسرعة ودخلت

مباشرة إلى إيڤا.. إلى مدخلي المتاح في الوقت الحاضر لكتابة رواية،  
وبدأت أقرأ غير عابئ بالطرق المبالغت على الباب، وصوت المشجع،  
حفار القبور يرجوني أن أفتح كي أرى صوراً جديدة لحفل تكريمه  
نشرتها صحافة اليوم:

إنَّها القُشْعُريرة يا أصدقاء

دعوني أصف لكم القشعريرة، أزر كشها بشياب فتنها، وأرافقها أمامكم على مدرج عرض أزياء فاخر شبيه بالذي طالما مشت عليه كلوديا شيفر، أو فتاة طاجكستان الياقة لنا باروف.

كنت في موسكو تلك السنة، أشارك في ملتقى سنوي تنظمه أكاديمية السينما هناك، وتدعو إليه مخرجين شباباً من شتى بقاع العالم، وحتى عالمنا البعيد غير المتحضر، أو المعترف به سينمائياً. لم أكن في الحقيقة غريباً على موسكو ولا ضيفاً منبهراً يتلمس الطرق ويتلفت في حذر، فقد درست فن الإخراج فيها، أجدت لغتها وغازلت نساءها، وتصلعلكت في أزقتها وميادينها الحمراء والصفراء، صادقت ضحكها وغوايتها وعدت إلى بلدي لأتخطم. لم تكن ثمة سينما لأتوظف مخرجاً فيها ولا حتى كومبارس تافهاً، وما أنتجت طوال تلك السنوات الخمس التي قضيتها بعد أن عدت، سوى شريط تافه، عن باعة الثلج المشردين في موسم الصيف، حشرت فيه عدداً كبيراً من أقاربي وأصدقاء أقاربي، تشرّدوا بلا حنكة في شوارع ممثلة بالحفر، وأرادوا الظهور في شريط لم يعرض قط، وظل حبيس أدراجي حتى تأكل. وبرغم ذلك لم تنسني موسكو، وتدعوني لحضور ملتقاها السنوي بانتظام.

كنت أجلس في بـهو فندق (إيروستار) مكان استضافتنا. إنه أحد الفنادق العتيقة في المدينة، بني في زمن روسيا القيصرية وكان مأوى

للجنود المحاربين، ونساء المتعة وبعض أثرياء الحرب الجدد، يغشونه للثروة والتسرية عن النفس، ثم رمّم بنيانه عدة مرّات، ورمّمت سمعته بإدخاله إلى لائحة الفنادق التراثية، والآن يستضيفون فيه الثقافة الزائرة من كلّ مكان، أو أندية كرة القدم التي تشارك من حين لآخر في دورات رياضية. وحين كنت طالباً في موسكو، كنت أعشى ذلك الفندق كثيراً، أجلس في كهو المريح، أراقب حمامة بيضاء كبيرة من الورق المقوّى، معلّقة على سقفه مواجهة للمدخل، تتأرجح كلّما انفتح الباب كأنها تحيي القادم الجديد، أو أحظى بابتسامات عطرة وملونة، تطلقها سائحات أوروبيات أو آسيويات، ربما ينشدن إلى لون بشري غير المألوف في بلداهن في ذلك الحين.

كان برفقيّ (سيدي ولد البني)، مخرج موريتاني من أبناء دفعتي، تحضّر في موسكو وعاد إلى وطنه ليتحقّق أيضاً، ويواظب مثلي على حضور الملتقى كلّ عام، لكنّه كان أفضل حالاً مني حيث عثر منذ عدة أشهر على طاقم شركة إنتاج فرنسية، جاءوا لتقصّي الصحراء وغموضها وعالم رجالها ونسائها، وظّفوه مساعداً للمخرج وأعادوا إليه قليلاً من الأحلام. كان ولد البني يتحدث بلا توقف عن تجربته الفرنسية، وكيف أنشأ لهم الشريط من ألفه إلى يائه، ودلّهم على أسرار لا يعرفونها، أسرار فتنة النساء وفحولة الرجال وكيفية ملء الأرداف وتضخيم الأثداء، وعدّل من سيناريو الشريط حين أضاف إليه أغنيات عذبة بصوت المغنية فاطمة بنت لقّاي، ورقصات تراثية يؤديها الرجال والنساء معاً في تناغم وهم متماسكون.

وهل عرض الشريط في فرنسا؟

كنت أسأله، وأمّني نفسي بشركة مماثلة، ربما تسمع مصادفةً بتراث عرب (البطانة) رعاة الإبل في وسط بلادي، أو رقصات

(المردوم) الهمجية في الغرب، أو تسعى لتوثيق تراث الجنوب بكلّ بشاعته ووحشيته في شريط يعرض في أوروبا، وأكون مساعداً لمخرجه وصانعاً حقيقياً للقطاته.

حتى الآن لا.. لكن ربما في الشهر القادم أو بعد شهرين على الأكثر، وسأحضر العرض في باريس.

ردّ وفي وجهه فرح ضاح، ويبدو زُيّه الوطني المكوّن من تلك العباءة الزرقاء المزركشة التي يرتديها فوق بذلته الرصاصية، أنيقاً برغم غرابته، ولفته للأنظار في ذلك المكان البعيد.

كان (أليكساندر ييجي)، يحوم في المكان بزُيّه المكوّن من قميص أحمر وسروال أسود، حاملاً أطباقاً ممتلئة أو فارغة، أو راداً على شكوى زبون من رداءة القهوة، وطعم الفودكا الذي يشبه طعم مسمار صديّ. إنه راقص باليه معتزل، ونادل قديم في فندق (إيروستار). ولطالما استغربت من اسمه، وكيف أمكن أن يكون بذلك النشاط، أن يصبح أليكساندر ولدًا ليحيى ويحيى والدًا لأليكساندر، لكنّ النادل رد على استغرابي بكلّ هدوء يبدو أنه تدرب عليه من كثرة ما سأله العرب الذين يصادفهم، أو الروس أنفسهم الذين ينتمي إليهم. هو عربي مثلي بالرغم من أنه لا يعرف شيئاً عن بلاد العرب، ولم ير والده الذي زرعه نطفة حتى وأخبرته والدته، أنه كان يدرس طب الأسنان ورحل عائداً إلى بلاده، وتلك السمات القوقازية التي يحملها إنما هي جينات والدته، وتأثير البيئة التي يعيش فيها. ولم أقنع أبداً بجوابه، ظللت أتذوقه هكذا.. اليكساندر ييجي صاحب الاسم الغريب.

فجأة ظهرت القشعريرة عن بعد ثم اقتربت رويداً رويداً..

كانت شقراء بصفيرة ذيل الحصان، معقودة بشريط أحمر وتتارجح على ظهرها، ترتدي قميصاً قصيراً زاهي الألوان، صيرها مثل



لوحة في معرض للمحترفين، وتنتعل صندلاً من الجلد لا تسمع له ضجيجاً في ذلك الرخام الذي تضج فيه حتى الهمسة. على عنقها لا شيء وكل شيء، على يديها لا زينة، ولكن كل الزينة، وعلى وجهها تقاطيع لو عممت على نساء الأرض، لا ختفت كلمة القبح والقبيح من قواميس اللغات. وحين حادثنا في مشيها وانفلتت إلى أحد الممرات، كان ثمة عطر فاتن ورهيف رش من قارورة.. قارورة بشرية.

أمسكني الموريتاني ولد البني من يدي وأمسكنه من يده، ضغط على يدي وضغطت على يده، ووقفنا كلانا فجأة، نحدق في الممر الذي يحتضن مشيها المتكسر وترتعش. وفي اللحظة التي امتلكت فيها بعضاً من الوعي وبعضاً من الثبات، أفلت يد الموريتاني وركضت إلى أول الممر منساقاً وراء العطر، وكان خائياً. كنت من الذين يعرفون موسكو جيداً كما قلت، والذين اكتشفوا كهوفاً للضياع هناك لم يكتشفها أهل البلاد أنفسهم. ويحضري وجه عازفة الجيتار البرونزية من مدينة كيف (ناتالي) كما هو مدوّن في بطاقتها، وناتي كما كنت أناديبها ويعجبها ذلك النداء، تلك التي أذهلت الجميع بوجهها وأداء أصابعها في إحدى الحفلات العامة، وأبت حتى أن تبسم، أو توقع على أوتوغرافات الإعجاب التي قدمها لها الصغار والكبار بمن فيهم مشرفو الحفل. واستطعت أن أعثر على ثغرة في جدارها الصلد حين حدثتها عن بساط الريح وبحيرة الذهب في وسط قصر السلطان شهربار، وأنا أستاذ بعناد إلى باب غرفتها في الفندق الذي تقيم فيه. وكانت رفيقة سلسلة عاشت معي عدة أشهر بعد ذلك، قبل أن تفر إلى أمريكا، الوطن الحر كما يسميه الروس همساً، وتصبح واحدة من أعنى مناهضي الشيوعية، تناهضها بجيتارها وأشعار من نظمها ونظم مناهضين آخرين، ثم ليصلها الموت حتى جحرها الضيق في بروكلين، ويعثر عليها بواسطة

أعضاء الفرقة التي تعمل فيها، ميتة برصاصتين صنعنا في روسيا. لقد بكيت حين سمعت بموتها من إذاعة أمريكية كانت تبث أغانيها وأدمنت سماعها، وأذكر أنني نسيتها وغيّرت موجة الراديو إلى محطة أخرى بعد عدة أشهر من الحادث، وأذكر أنني عشت في رعب قاتل زمناً طويلاً بعد أن فرّرت، أخاف أن أعدّ مثلها مناهضاً، ولم أكن سوى ضيف نافه من العالم البعيد، عاش لذة طارئة حتى انتهت ولذات طارئة غيرها.. هكذا.

عدت إلى مقعدي بجوار مخرج موريتانيا، وجدته يردد أغنية راقصة من غناء مطربتهم فاطمة بنت لقّاي، ويهز رأسه في نشوة.. كانت عيناه تتابعان امرأة بدينة تتحرك في وسط هو الفندق جارة قدميها، ولا بدّ أن ظهورها اقتلعه من تلك الرعشة التي ارتعشها معي، وأعادته إلى ثقافة وطنه المتجذرة في الدم حيث البدانة ليست من أدوات السحر عند المرأة فقط، لكنّها السحر نفسه.

- هل رأيت تلك الفتاة من قبل؟.. أقصد التي مرت منذ قليل.

سألته بصوت مرتعش، وكنت أمل ألا يكون قد رآها إلا في تلك اللحظة التي ظهرت فيها واختفت وسمّرنا على مقعدينا معاً. لا أريده متفوقاً علي حتى في رؤية فتاة لا أعرف إلى الآن سوى أنها قشعريرة، قد تصبح دفئاً في يوم من الأيام وقد تستمر قشعريرة حتى يطفئها الزمن. لم يكن سيدي ولد البني يسمعي، أغنية بنت لقّاي في حلقة بمقطع حميم وصل إلى حد العناق، والبدينة التي يسمّر نظراته عليها واقفة الآن في وسط البهو، ممسكة بخريطة كبيرة نشرها أمام وجهها، وتبحث بداخلها عن شيء حُفّت أنه متحف عتيق أو نصب لجندي مجهول، في مدينة تمتلئ بالمتاحف وبوابات التاريخ ومجهولي الحرب. "لا بدّ أنّها سائحة من رومانيا".. هكذا قلت في نفسي، تشبه الرومانيات

جداً وتذكرني بطيبة عيون في بلادِي، كانت زوجة لصديق عاد بها من رومانيا ووطنها في البلاد.

هل رأيتهما من قبل؟

كان الموريتاني قد أنهى أغنية بنت لَقاي الحميمة قبل أن تكتمل، ونفخ حلقه بأغنية أخرى تتحدث عن وردة بنفسجية في يد العاشق، ويركض بها نحو المعشوقة. رأيته ينهض واقفاً، يعدل عباءته الوطنية المزركشة على جسده جيّداً، وكان طويلاً جداً، ونحياً جداً ويضع نظارة ذات إطار ذهبي على عينيه، ووصل حتى محل بيع الورد الملحق ببهو الفندق ضمن محال عديدة لبيع التحف والتبغ وتغيير النقود، في ثوان معدودة، وخرج حاملاً وردة بنفسجية مغلفة ببلاستيك شفاف، قدّمها للبيدنة التي خلعتها رومانية، ثم اتجه برفقتها إلى باب الخروج، وكانت الخريطة قد سقطت على الأرض، لكن لا يد التقطتها.

جاءني أليكساندر يحكي يمشي على مهل، وكنت قد أشرت إليه أثناء تنقله المستمر بين الطاولات عدة مرّات، ولا يلبي. والقشعريرة تزدد، وعيناي أصبحتا مغرمتين بالممر الذي سلكته الشقراء. تعال يا أليكساندر.. اظهري يا شقراء. كانت بين يديه تحفة فضية من تلك التي تكثر على طاولات الفنادق ولا أعرف لها مغزى أبداً، ولا أذكر أنني تأملت واحدة من قبل قط. هي نظرة عابرة ألقيا عليها ولا شيء آخر. كانت تمثل ثوراً بثمانية قرون وعينين واسعتين جداً، لمعها بفوطة حمراء في يده ووضعها أمامي.

— من هي الفتاة الشقراء التي مرّت من هنا منذ قليل وترتدي قميصاً ملوّناً وصندلاً من الجلد؟

سألته وكنت واثقاً تماماً أنه رآها وأنه يعرفها وأليكساندر يحكي كما أعرفه ليس نادلاً عادياً يتنقل بين الموائد بلا تركيز، لكنّه يملك عيني

ذلك الثور الذي وضعه أمامي، وأخبرني مرة في بداية تعريي إليه، أنه يحسُّ بالجمال قبل أن يراه، وكان أثناء تأديته رقصات الباليه، وقبل أن يصبح نادلاً في (إيروستار)، يتوقف برهة ليوجه إحساسه نحو باب المسرح، وتدخل في نفس اللحظة امرأة فاتنة.

إنها إيفا.

رد بهدوء. لكنني لم أشبع، القشعريرة لم تنطفئ، وأحس بالغيظ من وجهه القوقازي الضخم، وبقعة سخرية أحسستها تتكون على عينيه.

ما هويتها يا أليكساندر؟

موظفة في العلاقات العامة بالفندق، انضمت إلينا منذ شهرين فقط، ولا أعرف عنها أكثر.

غادرني بسرعة متجّهاً إلى طاولة أخرى ضج شاغلها من كثرة الانتظار، وسمعتة يسبّ ويلعن. وعدت إلى الممر الممتد أتأمل فراغه، وأستحثّ بنظراتي الأبواب المترابطة على جانبه أن يفتح منها باب وتخرج منه تلك الإيفا الملونة. موظفة في العلاقات العامة توظفت منذ شهرين، وتبدو مشيتها المتكسرة شهادة عليا في فن العلاقات. لا أدري ما أصابني ولا استطعت السيطرة على الضجيج الذي أحمله داخل مشاعري في تلك اللحظة. لم أكن ذلك الطالب المقيم في البلد كي أتبع غواية، وكنت ضيفاً عادياً سيقضي بضعة أيام نظيفة بين سينمائيين نظيفين، ويرحل إلى غباره منتظراً الموت أو حظاً مباحاً مثل حظ الموريتاني ولد البني. أعدت التفكير في هذه النقطة ولم تفلح محاولتي تثبيتها في الذهن، والانطلاق لركوب الحافلة التي ستقلنا إلى مقر الملتقى. وأرى العديد من زملائي المدعويين قد تأنقوا وحملوا حقائب صغيرة من الجلد، ويتجهون إلى باب الخروج. أنا ضيف إيفا الملونة..

وولد النبي ضيف الرومانية التي ذكرته بثقافة بلاده وحولته إلى سائح.  
سأوثق صليتي بالمر أكثر، وإن دعا الأمر أصادقه عنوة، أطرق كل  
الأبواب حتى تنفتح، ويشرق من أحدها وجه إيفا.

كانت قد مضت ساعتان وأنا في جلستي التي سميتها الجلسة  
صديقة ممر إيفا، أهم بالنهوض أحياناً لأبدأ طرق الأبواب وأرى  
استجابتها، ثم ما ألبث أن أعود إلى جلستي. ساعتان ليستا وقتاً طويلاً  
إذا ما وُظف تحت إمرة القلب، وكنت قد فكّرت في مئة حيلة  
أستخدمها لاستمالة تلك الملوّنة ولم أجد واحدة تصلح. فلم يعد  
شهر يار القابض على ألف ليلة وليلة، سلطاناً أمراً ترهبه شهرزاد القوية  
المعتدة بنفسها في هذا الزمان، ولا بساط الريح حامل الأحلام في زمن  
الخرافة، مواصلة تختصر المسافة بين النيل ونهر الفولغا. وبالطبع لا أملك  
اسماً ولا شريطاً ناضجاً ذا وقع أتفاخر به أمام موظفة علاقات عامة، لا  
يخطر ببالها أبداً أنها قد تكون دخلت قلباً أو زينت غواية وهي تعبر  
ردهة الفندق الذي تعمل فيه. حتى شريطي الوحيد الذي تشردت فيه  
العائلة وباعث الثلج في موسم الصيف قد تأكل ولم أحضره معي.  
كنت اعتبره ذكرى وأحاف أن يضيع وتضيع الذكرى.  
اظهري يا إيفا. اخرجي من أحد الأبواب يا إيفا..

- افتح يا عبدالله.. افتح يا فرفار.. أرجوك.

كان صوت المدلك زوج العمة (ث)، وقد ارتفع بدرجة خفت فيها أن يظن الجيران برغم عدم حبهم لي وتكشيرهم في وجهي كلما صادفوني في الطريق، أنني ميت بالداخل فيسعون إلى كسر الباب لاكتشاف جثتي. وقد بدأ المدلك يطرق الباب، ويصيح منادياً علي، وأنا أقترب من نهاية ذلك الذي كتب عليه الفصل الأول، من رواية (على سريري ماتت إيفا)، أول رواية أبدأ قراءتها في حياتي، وتشدني بالرغم من أنني لم أفهم الكثير من أجوائها الغريبة ولغتها المطلسمة، وأن أحداثها تقع في بلاد لا أعرف عنها شيئاً. أقرأ، وأتوتر، أصيح: يا ابن الكلب، بين لحظة وأخرى، وأواصل القراءة، أضحك أحياناً من سلوك الموريتاني ولد البني حين لم يلتفت كثيراً إلى الشقراء الجميلة، وانبهت بامرأة بدينة، اصطادها بوردة، وأحس بمدى تخلف الوظيفة التي عملت فيها أكثر من عشرين عاماً وانتهت بساق خشبية. والروس وصلوا إلى ناتالي في بلد الحريات واغتالوها ببساطة، بينما يفلت كثير من الخونة من مراقبتنا حين ينحشرون في باص مهلهل، أو يتسرّبون في الأزقة المتلوتية أو حتى خلف ظهور جداثم. لن أبكي على عازفة الجيتار ناتالي أو ناتي كما فعل بطل الرواية ضعيف الشخصية. أعتبرها خائنة لوطنها، باعتة بسهولة وتستحق ما جرى لها، ولو وقعت في يدي شخصياً لكسرت رقبتها. لكن ما جعلني أتوتر حقيقة هو التفكير في إيفا أكثر

من بطل الرواية نفسه، والذي لا أعرف اسمه حتى الآن، ساسميه (م. م) في الوقت الحالي حتى يرد اسمه فيما تبقى من القصة التي سأعاود إكمالها حتمًا بعد أن أفتح للمدللّك، وأرى سبب قدومه وصراخه أمام بيتي. وقد كان اسم (م. م) من الأسماء التي ما تزال عالقة بذهني بالرغم من أنني كنت أراقب صاحبه اليساري منذ أكثر من خمسة عشر عامًا، حتى أقلع عن السياسة ويعمل الآن سمسارًا في سوق السيارات المستعملة. لقد كان (م. م) مثقفًا درس إحدى المصائب في موسكو وعاد ليزعجنا، هل تكون هذه قصّته يا ترى؟.. سأتحريّ ذلك.. نعم سأتحريّ بعد أن أكمل القصة لأفارقها بالقصّة الحقيقية لليساري المعتزل... خارج الخدمة لكنّ دودة الخدمات لا تموت بسهولة كما قال المسيحي صاحب المكتبة.

ارتديت ساقي الخشبية ببطء، وقد تعكّر مزاجي تمامًا، واتجهت إلى الباب وألّفتُ ورائي بين لحظة وأخرى، أتأمل غلاف إيفا التي تركتها في لحظة مشوّقة، في حزن.

كان المدللّك زوج العمّة يقف نافذ الصبر أمام الباب، يرتدي ملابس رياضية مفصّلة على شعار فريق المارد الذي يعمل مدلّكًا له منذ أكثر من أربعين عامًا، وكان شعارًا ذا لونين أبيض وأزرق. على كتفه حقيبة رخيصة من القماش الأسود الداكن، وتنتعل قدماءه حذاء رياضيًا تقطعت بعض من خيوطه. وكان المشجع حفار القبور ما زال موجودًا في المكان، وقد جلس الآن على سطح حجر ناتئ، وهو يفرش صحيفته أمامه، وينادي على المارة أن يأتوا ويتأملوا. انتابني شعور غريب في تلك اللحظة، أن المشجع يراقبني، وربما تكون تلك الجلسة مخصصة لي شخصيًا، ولكنّ لماذا يراقبني؟. شعور سخيّف بلا شك، نحيته جانبًا، وبسرعة شديدة.

- ماذا تريد؟

قلت مخاطباً المدلّك، وأعرف من خبرتي في التقصّي التي اكتسبتها طوال سنوات خدمتي، أنه جاء ليذكّرني بموعد افتتاح مسرحية مسك الختام التي حصل فيها على دور العجوز المغمي عليه عند لقاء الحبيبة الغائبة، بعد طول انتظار لأي دور في مسرحية. في الماضي وحين كنت ما أزال أعمل، كان المدلّك يقصدي في أمور أعظم، كأن أحرّر لاعباً من فريقه ضُبط يتعاطى البانجو في بيت مشبوه، أو أحد معارفه حرّر شيكاً بلا رصيد لتاجر دراجات. كأن أتوسّط له لدى تاجر الحلي الذي يتعامل معه، كي يؤجل ديونه المستحقة. وطلب مني مرة أن أسافر معه نوعاً من الدعم، إلى إحدى المدن الإقليمية في شرق البلاد، وكان ينحدر منها، وسمع بأن فرقتها المسرحية تبحث عن موهوبين تشارك بهم في عرض سيقدم ضمن مسابقات مسرح الهواة.

- لا تنس يا عبدالله.. افتتاح المسرحية بعد ساعتين فقط. لقد تحجّجت عمتك بالأم ظهرها حتى لا تحضره، وأعتمد عليك لتشجيع فرد من العائلة. اليوم سيولد في عائلتكم نجم. كان رأسه مرفوعاً إلى أعلى في غطرسة، وعيناه واثقتين، وشفتاه مضمومتين بنهج مستفز، وتنارجح ميدالية من القصدير على صدره العريض يحثها على التآرجح، حين يلمسها بين لحظة وأخرى.

لم أكن بالتأكيد مقتنعاً بالنجم الذي سيولد في عائلتنا، وقد تجاوز السن التي تولد فيها النجوم منذ زمن طويل، ولا دور الإغماء عدّة دقائق يغلق بعدها ستار المسرح سيصيرُه نجماً، لكن لن أخذله، سأؤجل قراءة القصة إلى وقت آخر وأذهب لمشاهدة المسرحية. لم تكن



المجاملات الإنسانية من طبعي. في الواقع كان إلغاء تلك المجاملات جزءاً من تدريبي المكثف في بداية عملي لكن الطباع يمكن أن تتغير، والخروج من الخدمة قد يلغي الكثير من أساسياتها. وهل ستمثل بملابسك الرياضية هذه؟ طبعاً.

ضحك في نشوة:

- ملابسي هي بيت القصيد يا فرفار، فالعجوز المغمى عليه كان رياضياً مخضرمًا، بالرغم من أن ذلك لا يذكر في المسرحية، سيستنتج المشاهدون حين يرون الملابس.. هذا ما يسمونه الإيحاء.. هل فهمت؟. تعال من الباب الجانبي للمسرح وسأجلسك في مقاعد الصفوة.. لا تتأخر.

كان يخط على كتفي خبطات متتالية، ويده كأنها عود حطب جاف. ولا أدري لماذا أحسست بالرعدة من خبطاته ولم أحس بالوجع. حلوة جداً كلمة الإيحاء تلك، كلمة جديدة على قاموسي أيضاً شبيهة بكلمة الطقوس، وسأستخدمها في قصر الجميز، أهر بها اللامع (أ. ت) والفتاة صاحبة سروال الجينز باهت اللون وكل الذين يجلسون على تلك الطاولة المثقفة وحين أصبح كاتباً كبيراً سأحدث كثيراً عن الإيحاء ودوره في فن الكتابة.

كانت ساعتي الوسطى اند القديمة تشير إلى الخامسة عصراً، والمدلّل يرفع يده، يستوقف واحدة من عربات الركشة الخفيفة التي تستخدم بشدة مواصلات في البلاد، وكانت بلون أخضر وسقفها من القماش البني. سمعت سائقها يصيح: "مرحباً يا كابتن.. تفضل يا كابتن"، والمدلّل ينحشر فيها ويده مرفوعة باتجاهي، ترسم موعد افتتاح المسرحية على الهواء.

تركت باب بيتي مواربًا واتجهت إلى المشجع حفار القبور، وهو يجلس على الحجر النائي وصحيفته أمامه. جلست بجانبه وأنا أشاهد الذهول حقيقة على عينيه وأنه بلا وعي. كنت أود أن أطيّب لحاظه قليلاً. تأملت صوراً عدة تمثله بملابس الصوفيين الخضراء ومسبحة اللالوب حول رقبته يحفر قبراً، أو بملابس بيضاء برّاقة يصافح رئيس البلاد حين قلده وساماً، ثم وسط أفراد أسرته وأصدقائه ولاعبي فريق اللبلاب والوسام يتدلّى على صدره. قلت: "صورك جميلة، جميلة جداً"، لكنّه لم ينتعش.. قال "ليست كلّها"، ونهض تاركاً صحيفته مفروشة في مكانها على الأرض، ومبتعداً عن المكان حتى اختفى في أحد الأزقة. كان صوته واهناً لا يشبه صوت مشجعي الكرة الكبار ومشيته كأنها مشية ضائع في الصحراء، يتلفت يمنة ويسرة. لممت صحيفته من الأرض، أخذتها معي وفكرت أنه قد يعود باحثاً عنها، ودخلت إلى البيت.

كان المسرح القومي حيث تعرض المسرحية، بعيداً من بيتي نسبياً ولا تستطيع ساق الخشب اللعينة أن تقطع الطريق إليه من دون أن تتخلخل أو تسقط. حاولت أن أوقف عددًا من العربات كانت تمرق بقربي، لكنّ سائقها لا يلتفتون أو يلتفتون ويرتدون بلا رغبة في التوقف، وحين عثرت أخيراً على عربة ركشة شبيهة بالتي ركبها المدلّك، ووصلت إلى المسرح، كان العرض على وشك أن يبدأ. عثرت عليه متجهماً ينتظرني عند باب الصفوة، وقادني صامتاً إلى كرسي من القطيفة الحمراء في الصف الأمامي. رفع من فوقه صحيفة مطوية، وأجلسني ثم انسلّ راكضاً إلى خلف الكواليس. كانت مفاجأة لي أن الروائي (أ. ت) كان من بين الصفوة، والفتاة صاحبة سروال الجينز باهت اللون، من بين مرافقي الصفوة، تجلس على مقعد

ملاصق لمقعد الروائي، وتميل إلى أذنه هامسة بين لحظة وأخرى، واستطعت أن أتعقب همسها. كانت في الواقع تسأله إن قرأ شيئاً من روايتها (قصة حب)، والروائي لا يجيب ولكن ألمح أنفه أكبر من المعتاد، وأنخيله يستمتع بالعطر الذي لا بدّ تتعطر به تلك الفتاة المهووسة، والتي حاولت أن أقارنها بإيفا ولا عثرت على رابط. لن أحيي الروائي في هذه المرحلة. سَاهرب من نظراته إن صادف ووجهها إليّ. أمامي عمل كثير قبل أن أنضم إلى طاولته وساعتها لن يكون حول الطاولة نجم غري.

بدأ العرض ساخناً، مجموعة من الناس يحملون جثة رجل، يضعونها على الأرض. يتضح من الحوار الذي يدور بينهم، أنه غريق انتشلوه من النهر ويبحثون عن هويته. وهمس رجل يجلس بقربي في أذني، بأن الغريق يرمز إلى الوطن، والذين انتشلوا الجثة يرمزون إلى الشعب حين يعثر على وطنه غريقاً. دققت في ملامح الرجل حتى أتذكره وأتبع أفكاره فيما بعد، وأخذت أنبش في جيوبي باحثاً عن ورقة، ثم تذكرت أنني خارج الخدمة وليس في جيوبي ورق أصفر. إنها دودة خدمتنا التي لا تموت بسهولة. ما أتفه دودة خدمتنا. استمر العرض ساعة حتى حان موعد ظهور المدلّك. إنه الفصل الثاني الذي ينتهي بالإغماء، ثم تواصل المسرحية ما تبقى من فصول.

في البداية ظهرت امرأة عجوز تمشي على مهل، وتردد عبارة "لا يمكن.. لا يمكن"، ثم ظهر المدلّك من الطرف الآخر، كان بنفس ملابسه الرياضية ويمشي في تناقل متكئاً على عصا من خشب الأبنوس. رأيته يقترب من المرأة، بصيح: "حليمة.. حليمة الجميلة"، والمرأة تصرخ "نعمان.. نعماني الوسيم.. لا يمكن"، ويسقط المدلّك على ظهره في

تلك اللحظة محدثاً صوتاً هائلاً على خشب المسرح القديم. يصفق الحاضرون كلهم، ويغلق الستار.

في البداية فكرت أن مهمتي قد انتهت بمشاهدي لزواج العمة في دوره الذي سيصيرُه نجماً كما يعتقد، وفكرت في المغادرة لأعوذ قراءة إيفا ومعرفة تطور العلاقة بينها وبين بطل القصة، لكن قطعاً سيبحث المدلل عني بعد نهاية العرض، وربما يتهمني بأنني فررت قبل أن أشاهده، ومن ثم بقيت ساكنة أنتظر حتى النهاية، وفي تلك اللحظة كان الروائي (أ. ت) وصاحبه يحتكان بي متجهين إلى باب الخروج، لكنهما لم يلقيا إلي أي نظرة.

مضى زمن أطول من ذلك الذي يستغرق في العادة لبداية فصل جديد وأعرف ذلك من متابعي مشبوهين كانوا يدخلون المسارح، وأدخل وراءهم. سمعت الجماهير تظنطن في سخط أو تصفر، وبدأ بعض الحاضرين ينسحبون واحداً تلو الآخر، ثم فُتح الستار أخيراً وظهر على المسرح رجل في أواسط العمر يرتدي الثوب والعمامة ويمسك بمايكروفون. كان يرّدد:

نأسف حضرات الحضور. لقد أصيب أحد ممثلينا بوعكة طارئة، وسيلغى باقي العرض اليوم. الرجاء الاحتفاظ بكعوب التذاكر وإبرازها غداً لو سمحتم. شكراً على حضوركم جميعاً.  
ثم أغلق الستار من جديد.

في المستشفى الذي نقل إليه المدلل، ووصلت إليه منهكاً وخائفاً بعد أن علمت بأنه لم يصح من إغمائه، وبصحبي العمة التي اقتلعتها من آلام ظهرها وأتيت بها باكية، أخبرنا الطبيب أنه عثر في دمه على نسبة ليست كبيرة من عقار (الأتيفان) المخدر، لكنها يمكن أن تُميت رجلاً في مثل سنه مصاباً بارتفاع ضغط الدم، وتصلب العروق. كان

قد حطّط لكلّ شيء كما يبدو: أن يسقط على المسرح بفعل إغماء حقيقي، وليس إغماء ممثل حتى يظل اسمه محفوراً في أذهان كل من شاهد العرض، لا بوصفه أدى دوراً مميزاً ولكن أدى دوراً حقيقياً. في حقيقته التي فتحوها لم يعثروا على رسالة انتحار كما كانوا يتوقعون، وعثروا على آلاف الأوراق الوردية المقصوصة بعناية في شكل قلوب حية، موقّعة عليها جملة واحدة وبخط غاية في الثبات:

أشكرك على إعجابك بي.. وأوقّع لك مع حبي.

لم يمت المدلّك في تلك اللحظة، كما كان يتوقع الأطباء وأقرأ تشاؤمهم جلياً على وجوههم، وهم يحقنون ساعده اليايس كعود من الخطب، بسوائل عكرة وشفافة، ولا كان يودّ أن يموت حقيقة كما أخبرنا بعد أن استيقظ وسأل عن سيجارة من ماركة دهبيل شبه المعدومة في البلاد. وقام بنفسه بتوزيع الأوراق الوردية مضيئاً إليها اسم الشخص الذي سيستلمها، على مئات من الناس توافدوا إلى المستشفى، أو البيت بعد أن غادر إليه. ونحرت العمة خروفين سمينين احتفاء بتلك العودة. كان المدلّك مجنوناً بلا شك، شخصية روائية فذة، كما قلت، وفي تلك الأيام التي أصبح فيها شاغلي الوحيد، وسرقني من متعتي الجديدة وقراءة قصة إيفا، فكّرت عشرات المرات أن أجعله محوراً لروائيتي التي سأكتبها، وخفت أن يكتبه واحد غيري، خاصة أن بعض الذين زاروه في المستشفى أثناء رقاذه، لم يكونوا من معارفه أو أصدقائه، ولا حتى جمهوراً معجباً برجل أغمي عليه في خشبة مسرح. هؤلاء تسكّعت في وجوههم كثيراً مستخدمًا خبرتي في التقصي، وخيل لي مراراً أنهم كتّاب هواة يبحثون عن نص ليكتبوه. أعتقد بما بذلته من جهد في تلك الأيام، ومواساتي للعمّة الباكية والوقوف معها ليل نهار يؤهلني لامتلاك شخصية المدلّك، ولن أسمح لأي شخص آخر بسرقتها.

كنت مستلقياً على بطني في سرير نومي. ساقبي الخشبية هادئة  
بقربي، وإيفا بغلافها الجميل وتشويقتها الغريب، بين يدي. كان الليل  
في بدايته. ثمّة أصوات متقطّعة لعربات تمرّق بسرعة، وتأتي من النافذة  
المفتوحة في ذلك الليل الربيعي، رائحة شواء محببة. أريد أن أبدأ القراءة  
الآن، ويبدو الفصل الثاني يناديني: اقرأني يا فرفار.. اقرأني..

هل يعقل ذلك يا أليكساندر يحيى؟.. هل يعقل؟  
أن تترك أذني تستعر هكذا، ولا تأتيني بعود ثقاب لأحكها؟ وما  
زلت تحوم حول الموائد بلا كلل حاملاً وجهك القوقازي الضخم،  
تتظاهر بالود حيناً وبأكثر من الود أحياناً، ويستفرك ذلك المكسيكي  
الذي يجلس بلا لياقة، واضعاً ساقه اليمنى على أحد المقاعد، يدخن  
سيجار هافانا أمام وجهك نائراً رماد اللذة عليه ولا تبتعد؟

كان هو الفندق قد امتلأ فجأة عن آخره، انحنت الحمامة الضخمة  
على المدخل، لتحيي عشرات القادمين، وكانوا خليطاً غير متناغم من  
أوروبيين وآسيويين وأمريكان وآخرين بملامح لم أعرف لها أوطاناً.  
وفيههم يابانيون بدوا لي أجهزة روبوت مشتعلة بالحماس صممت  
خصيصاً للسياحة في هذا البلد. كاميراتهم غريبة، أجهزةهم المحمولة  
غريبة، وتقاطيع وجوههم في الواقع تقاطيع وجه واحد. راقبت انحناء  
الحمامة قليلاً، عليها تحيي الموريتاني ولد البني، ورومانيته البدينة، لكن  
ذلك لم يحدث، وعدت إلى ممر إيفا أتأمل فراغه، ولم يأتي أليكساندر  
بعود من الخشب لأحك أذني. لماذا توقفت عن التدخين؟، كنت سأعثر  
على عود ثقاب لو كنت ما أزال أدخن.

الآن اقتربت منّي واحدة من اليابانيات، فتاة شابة ولكن بلا فتنة  
ولا إغراء. ملامح الروبوت مشتعلة على وجهها بجدارة، ولا بدا قميص  
الجينز الضيق الذي ترتديه، بنهج أمريكي، وتجعله ضاغطاً بقوة على

صدرها المفتوح، دلوًا يمكنه أن يتشلى من ممر إيفا الفارغ. في البداية خاطبني بلغة التويوتا، والمازدا والنيسان، وهزرت رأسي مرارًا بعدم الفهم. عادت واخترعت إنجليزية متعبة، فهمت منها أنها تريد سحب مقعد فارغ من طاولتي، تنضم به إلى طاولة رفاقها المزدحمة، لكنّها غيرت رأيها كما يبدو، ووجدت فجأة روبوت مشتعلًا يجلس بقربي، على المقعد الذي تركه الموريتاني، حين قرّ برفقة وردة بنفسجية ورومانية أعادته إلى ثقافة بلده. لم أكن راغبًا في رفقة ميكانيكية كهذه. استمعت إلى سؤال أو سؤالين عن هويتي وبلدي وما أفعله في بلاد خفّ وزنها وضاعت هيبتها حين أنجبت غورباتشوف، وتركته يخترع البروسترويكا. أجبته بأنني سائح عادي يلتقط الصور للكرملين والميدان الأحمر، وقلاع الذئاب المنتشرة هنا وهناك، ولم أقل مخرجًا سينمائيًا. كانت أسئلتها ستتشعب بلا شك، وستكتشف بأنني لم أخرج سوى فضلات بطني منذ غادرت معهد السينما، وأنني لست مثقفًا كبيرًا، بدليل أنني لم أقرأ حتى الآن أدبًا يابانيًا، ولا سمعت بيوكو ميشيما كاتب اليابان الكبير صاحب رواية القناع، إلا عرضًا في إحدى الجلسات. ضحكت اليابانية بعمق، ولا أدري لماذا ضحكت. أخرجت من حقيبتها المصنوعة من جلد فرس البحر، منديلًا مطرّزًا، مسحت به دموع الضحك الكثيفة. كان وجهها الروبوتي أحمر في تلك اللحظة، ووجهي لا بدّ أحمر أيضًا، وأتلّفت بعصبية باحثًا عن نكتة في المكان ربما أضحكت تلك المبرمجة ولم تكن إجاباتي تضحك بهذا الشكل. وأشاهد رجلًا كأنه فيدل كاسترو في شبابه، يجلس خلفي مباشرة في مواجهة اليابانية، وكان يفرد يده اليمنى أمام شفتيه، يحمّلها قبلاً هوائية يرسلها في اتجاه رفيقتي. الآن فرغ مقعد الموريتاني مرّة أخرى، وامتلأ المقعد الفارغ بجوار كاسترو عاشق الروبوت والبرمجة.



أخيراً ظهرت إيفا الملوّنة. ارتبكت وأنا أشاهد الممر يمتلئ فجأة بالمشية الدلّوعة المكسّرة. نهضت واقفاً، ثامناً مثلما ينهض تلميذ جالس في إحدى ناصيات الشوارع، حين يمر أستاذه.. أنا تلميذ وأستاذي بلا شاربين ولا عصا أو صوت مجلجل، ولكن بكلّ تلك النعومة التي أعترض طريقها الآن بعد أن خطوت عدة خطوات، وتعمّدت أن أسقط حافظة نقودي أمامها، كأنها سقطت عرضاً من الجيب. كنت أعرف أنها حيلة قديمة طالما استخدمت لبدء حوار مع طرف يجهل كلّ شيء عن ذلك الحوار، وأتوقع أن الملوّنة ستكتشف أنها حيلة وتواصل طريقها. والفاتنات يعرفن ويتدربن على اكتشاف الحيل حتى لو كنّ مراهقات يافعات. وأذكر تماضر، فتاة الجيران التي أسقطت أمامها عشرات الأشياء حين كانت تعبر بالطريق ولم تلتقط منها شيئاً واحداً.

إيفا فاجأتني بلا شك، انحنت لنتلقط الحافظة معاً، وتلامس أصابعنا برهة. هي التقطت الحافظة وسلمتها لي متبوعة بابتسامة واتجهت إلى المصعد، وأنا التقطت ذرّة وهم حولتها إلى قنطار يقين مشيت به إلى مقعدي أولاً، ثم إلى غرفتي حين صعدت إليها في أول المساء لأستحم وأستبدل ثيابي، وإلى الحوار الذي دار بيني وبين الموريتاني ولد البني، حين عثرت عليه في ساعة العشاء متكئاً على مقعد مريح من الجلد، بين يديه قائمة الطعام مفتوحة عند صفحة الأكلات الأوروبية، ويفوح من جلده عطر لا يشبه عطور الصحراء. كان قد تحول إلى سائح، ويستعد لجولة مسائية برفقة سائحته البدينة، ولم تعد همهم شركات الإنتاج التي تأتي لتوثق الصحراء في تلك التوافه.

هل الابتسامة تكفي في نظرك؟

كان يسألني.. وعيناه لا تستقرّان على وجهي، ولكنّ تجولان في المطعم، عينا منتظر قلق، وليستا عيني رقيق يستمع إلى رقيق.

- في الوقت الحالي تكفي.. كان يمكنها أن تتجاهل الأمر وتمضي في طريقها، لو لم أرقها. سأنتزع منها ابتسامات أخرى، بل ضحكات.. سأزوجهها يا ولد البني.. وسترى.

كنت متحمساً وأحرق، وانتزعت قائمة الطعام من يده، فتحتها على الأصناف الروسية، ورأيت وجهه كله ابتسامة. سمعت صوته خافتاً، ويتحدث بالروسية:

- رحلة شهر العسل على حسابي. وفي أي مكان تختاره.

كان قد هُض لينضم إلى سائحته الرومانية التي ظهرت من بعيد، ترتدي سروالاً من القطيفة الخضراء، وقميصاً أصفر بلا كمين، بينها أكثر بدانة مما كانت في الصباح، ولا بد أن الموريتاني أطرى بدانتها بإسراف أثناء خروجه معها، وربما أطلعها على ثقافة بلده وأدخلها تلك الثقافة. سأتناول العشاء الروسي وحيداً اليوم، لا بأس ولكن سأتناوله بعد ذلك برفقة ناعمة، أنا واثق من ذلك. سينتهي الملتقى بعد ثلاثة أيام من المفترض أن أرحل بعدها، أعود إلى أرض الظلم والبطالة والحواري المثقلة بالبؤس انتظاراً لمعجزة ما، لكنني لن أرحل، سأجد طريقة للبقاء وأكمل ما بدأت. بالأمس فقط قدم لي أليكساندر يحيى عرضاً تافهاً، حين أخبرته عن فشلي في مجال السينما في بلادي، وعدم رغبة الروس في توظيفي لديهم بالرغم من أنني أحضر ملتقاهم منذ خمس سنوات وأعرف الكثيرين من ممثليهم ومخرجيهم، قال إنه سيجد لي عملاً في أحد المكاتب التي تهتم بالترجمة إلى الروسية. هو مكتب تملكه قريبة له تدعى سانشيا، ولن تردّ طلبه. يهتمون بترجمة سير الزعماء، ووثائق الحروب التي تنشب في كل مكان، والروايات التي أحدثت ضجيجاً في العالم الثالث، وسأنسجم معهم بلا شك.. سانشيا مثقفة كبيرة ومتعاطفة.. ستعجبك.

كان يقول وعيناه القوقازيتان، تتسعان وتضيقان، ويداه تتحركان بشكل مزعج، وأجد نفسي أرفض عرضه بلا تفكير. لن أترجم سيرة زعيم ممتلئة بالتبجيل، كتبها أو كتبت له بلا صدق، ولا مشاعر. لن أترجم وثائق الضرر التي لا هم أحدًا سوى من تضرر، ولا أتوقع أن أنجح في ترجمة رواية، لأنني أعتبر ترجمة الأدب خيانة لصدقه، ويجب أن تقرأ الآداب للذين كتبت لهم بلغتهم. لم يكثرث أليكساندر كثيرًا لانفعالي، ولم يسحب عرضه بالرغم من قسوتي وجلافتي، تركه هكذا قائمًا، وانصرف إلى تحليله الروتيني بين الموائد. الآن أجد نفسي أغازل ذلك العرض، أهديه وردة وقبلة، وأهض من مقعدي قبل أن أكمل العشاء. أتوجه إلى هو الفندق باحثًا عن النادل القوقازي، ولا أجدّه.. لقد انتهت نوبة خدمته وانصرف.

كان الليل بطيئًا، وقاحلاً وقد انفقت ثلثه في شارع بوشكين، أتأمل محلات الحلاقة المنتشرة هنا وهناك، ممتلئة بالشباب، وقد أدخلت قصّات المارينز الأمريكية إلى قوائمها. أتأمل الإعلانات الضخمة عن باليه (عندما يكتمل البدر) ومسلسل (المعلم ومرغريتا) المأخوذ من رواية لبولغاكوف، أو أجلس على ناصية مقهى مزدحم، أفكر في مئة حيلة أدخل بها إيفا الساحرة إلى حياتي. يزداد تصميمي كلما أوغلت في التفكير، وكانت آخر فكرة التقطتها، وأنا أغادر الشارع عائداً إلى فندقتي، وأشاهد الكوبي الذي كأنه كاسترو في شبابه، برفقة صديقته الروبوت اليابانية يترنّحان، هي أن أطرق قلب إيفا مباشرة، أعترضها في الصباح اعترض مخبول عاشق وأطلب مساحة في ذلك القلب. ستصنّدي حتماً، ولن أستسلم، والنجاحات الكبيرة كما أعرف، تأتي بعد عشرات المحاولات. كنت أعرف أنني لن أنام في تلك الليلة، وإن نمت فليس أكثر من نعاس مضطرب. ومن ثم عرّجت على إحدى المكتبات

الكبرى في تلك المدينة التي تشعُّ ثقافة. أريد رواية سلسلة تلهبني أكثر وتقضي معي ما تبقى من الليل قضاء معشوقة في أحضان عاشق، ورثَّح لي بائع الكتب الشاب رواية من تأليف مارك زاحاروف، قال لي: "لن تنام قبل أن تكملها"، وكنت بحاجة لتلك النصيحة.

حيّتي الحمامة بمنقارها الملون وأنا أدخل من الباب، كان البهو شبه خالٍ، وقد تبعر السباح غير المتناغمين في كلِّ شبر من أشبار المدينة كما يبدو. عشرات المهرجانات تقام في كلِّ عام. يأتي عشاق التاريخ، ليروا التاريخ حيًّا، عشاق فن الأوبرا، ليسهرُوا في مسرح موسكو الفني، وحتى عشاق الأكل ليتذوقوا أكالات غريبة لمختلف الشعوب، تقدّم في مهرجان الطعام السنوي. كان الموريتاني موجودًا وكثيرًا، ويجلس واجمًّا بلا رقيقة.. وفهمت أن الرومانية هجرته فجأة وبنفس السرعة التي صاحبته بها. "تصوّر أنها أتلفت عطرًا غاليًا من كوكو شانيل، اشترته لها بمئتي روبل! وصفتني بعدم التحضّر، وكنت متحضّرًا جدًّا برفقتها. لم أبصق على الأرض أبدًا! ولم أندesh في الشوارع المدهشة، ولا ردّدت أغنية لبنت لقاى ربما تعتبرها أغنية متخلّفة.. آخ.. حتى الفندق غيّره، أخذت حقائبها وانصرفت إلى فندق آخر".

كان يحكي بمغص وأكاد أضحك.. ويمعني من الضحك توتري الشخصي الذي أحمله منذ الصباح.. أواسيه ولا أدري إن كانت مواساتي ستخرجه من بؤسه.. "لا تبتئس يا صاحبي، ستعود إليك بأسرع مما تتصور، فلن يلتفت إليها غيرك في زمن أصبحت فيه البدانة لا تلفت النظر".

كنت أتمدّد على سريري في غرفتي بالطابق الرابع، ورواية زاحاروف بين يدي، أقرأ فيها على ضوء خافت ينبعث من مصباح

القراءة الموضوع بجانب السرير، رواية مشوّقة منذ بدايتها، تتحدث عن روسيا في القرن الثامن عشر وتحكي عن فتاة ريفية فقيرة، اسمها: زاريا، بيعت إلى تاجر نحاس أعرج وبعين واحدة كان يطوف القرى عارضاً بضاعته، باعها عمّها الذي عاشت في بيته بعد وفاة والدها وزواج أمّها من رجل آخر. وفي الليلة الأولى لها في أحضان التاجر، تقاوم بشراسة، مستخدمة أظفارها وأسنانها، برغم إحساسها بالدوار، لكنّها لا تنجو من مخالب التاجر، وتصبح الفريسة المثة لرجل كان يشتري الفقيرات، يستمتع بهن بوحشية عدّة ليال يتحولن بعدها إلى خادومات، يلمعن النحاس.. ويطفن به برفقته لبيعه للنساء القرويات.

مضيت في رحلة زاريا مؤرّقاً، يحزني مصيرها وسط آخريات يملكن المصير نفسه، ولا أدري متى غفوت، لكنني استيقظت فجأة لأجد الكتاب مفتوحاً على صدري. ضوء القراءة ما يزال يعمل، وضوء الصباح كثيف من خلف ستار النافذة. كانت الساعة المعلقة على الحائط أمامي تشير إلى التاسعة صباحاً وكان وقتاً متأخراً، ولا بد أن يفيا الملونة عبرت ممرها منذ الصباح المبكر.. لا يهم سأتأقّ حالاً وأفاجئها في واحدة من تلك الغرف، لا بد أن مكتبها هناك.. ولا بد أن أليكساندر يجي هناك أيضاً لأنني قبلت عرضه وسأعمل مترجماً لسير الكذب ووثائق الضرر، وأترجم رواية رديئة أحدثت ضجة في العالم الثالث.

إنها الثانية عشرة ظهرًا كما تشير ساعتي الوست اند ذات المينا الخضراء المشوهة بفعل الزمن، الوقت الذي غالبًا ما يوجد فيه الروائي (أ. ت) جالسًا وسط معجبيه ومضايقيه معًا، على تلك الطاولة الأثيرة في مقهى قصر الجميز، وكنت هناك لا أدري لأبدي إعجابي بما قرأته أم لأضايق الروائي؟

اليوم وعند الفجر تحديدًا، في تلك الساعة التي يبدأ فيها طوفان الشوارع، وتختلط أصواتها، انتهيت من رواية إيفا. قرأت فصولها المتبقية في نفس واحد وانتشيت.. نعم انتشيت برغم كل الصعوبات التي واجهتني أثناء القراءة. كنت كأني أصعد جبلاً رهيباً، ولا أستطيع التفتقر إلى الورا أو التوقف لالتقاط أنفاسي، وقد صعد ذهني ذلك الجبل بالفعل، عرفت أن ثمة أشياء أخرى في الحياة يمكن أن تمتع أيضاً، ليست مراقبة الطرق والوجوه وحدها، ليست كتابة التقارير على الورق الأصفر وحدها، ولا الوقوف منتفشاً في حفل تكريم يقيمونه من أجلك لأنك كشفت عن سر. وكان لدهشتي أن فكرة كتابة الرواية التي قادتني إلى ذلك الطريق، لم تهرب مني بعد أن قرأت رواية حقيقية، بل ترسخت أكثر. سأبدأ الكتابة فوراً وسأعرض ما كتبت على الروائي في جلسته وعلى روائيين آخرين، وقرأء والدنيا كلها بعد أن ينشر كتابي. أيضاً سأقرأ كتباً أخرى أحضرها من عند المسيحي (ر. م) وكل المكتبات التي تباع الكتب في العاصمة. سأقرأ.. سأقرأ.. أخذت

أردها وأنا أستعيد رواية إيفا بكل أحداثها، كما أستعيد طعمًا حلواً تذوقه لساني ولا يودّ أن يضيع منه. لقد بدأ بطل الرواية الذي لم يذكر اسمه وأسميته (م. م) على اسم اليساري تاجر السيارات المستعملة، بالفعل في مطاردة الشقراء الملونة أو إيفا الملونة كما كان يسميها طوال صفحات الرواية، لكنّها كانت تصدّه باستمرار. أدمن حبّها القاسي كما يقول، وأدمنت تعذيبه، وفي فندق (إيروستار) الذي شهد كثيرًا من الأحداث، جرحت وجهه مرّات بأظفارها التي أطلتها خصيصًا لجرحه. أهدت إليه أسطوانة غنائية لفريق روسي اسمها (ابتعد أرجوك)، وحرّضت عددًا من معارفها اصطادوه في ليل موحش وخنقوه، لكنّه لم يتركها. وبواسطة أليكساندر يحيى، الذي يسميه القوقازي صاحب الاسم الغريب، حصل على تلك الوظيفة في مكتب الترجمة عند سانشيا ماروف، وكانت سانشيا على العكس من إيفا، رقيقة وسهلة وسوداء الشعر، دفعت له مرّتب عدة شهور مقدّمًا، وكلفته مباشرة ترجمة كتاب عربي يشبه كتب التراث اسمه (لملمس الحرير في لغة القوارير) لمؤلف لم يسمع به من قبل، وشكّ بأنّه مدسوس على التراث العربي، لكنّه شرع في الترجمة برغم انغماسه في حب إيفا ومطاردتها في كلّ فرصة تسنح له. هنا تأتي الأحداث التي أربكتني، وجعلت ذهني الجديد على القراءة يتوقف مرارًا، ليلتقط أو يستعيد جملة ربّما ضاعت أو استعصت على الفهم. كانت سانشيا أرملة في الحادية والثلاثين، وتقيم في بيت مريح كما يسميه الراوي، حيث يقول:

"كان بيتها مأوى لأزهار البنفسج وشجر الغاردينيا. لأشعة الصبح القادمة من خلف ليل حالك السواد، وأيضًا للنشوة التي لا أدري كيف كانت تجيد صناعتها، وتحت قميصها الوردي في منطقة الصدر، يرقد جرح قديم.. إنه جرح حبها وفقدائها".

في غرفة صغيرة بفناء بيت سانشيا يقيم الراوي أولاً، محاولاً استعادة موسكو التي عاش فيها زمناً. أتقن لغتها وغوايتها، وتركها راکضاً لحلف سراب الأحلام، أن يصبح سينمائياً مبدعاً في بلاده، يعود زائراً سنوياً في ملتقى للسينمائيين ولا يشارك بشيء، لكن زيارة هذه السنة تبدو مختلفة:

"ظهرت إيفا في البداية كزهرة ريحان أجبرتني على استنشاق عطرها، والآن تبدو حنظلاً مطهواً بإتقان، يقدم لي على مائدة مطعم من فئة الخمس نجوم. لم أكن أملك عصا موسى، أهش بها أغنام العشق كي ترحل بعيداً، ولا كانت عصا ضعفي حية تتلوى أمام السحر تبتلعه.. شهرزاد المزركشة بمئة ثوب أخاذ.. أستلهم من وجهها الجنون، وتستلهم من وجهي المشوّ، قدرة أن تجعلني أجن".

إلى غرفته تلك تتسلل سانشيا ذات ليل: "مدهونة بشيطان أخرس كان ينازلني في صمت ويعرف أنني بلا عتاد. كانت ترتدي قميصاً أخضر شفافاً، لا يرشد العينين إلى الجسد الممتلئ بخواء أرملة، لكنّه يفضحه أمام تلك العينين. قرأت فتنتها تلك وارتعدت، ولا أدري ما الذي شدّها إلى يأسِي، وسجائري التي عُدت أدخنها بلا توقف، ولا كانت في نظري سوى خيط إقامة تعلّقت به حتى أقيم قريباً من الجارحة الملوّنة".

يقاوم الراوي فتنة سانشيا في تلك الليلة، وليال أخرى عديدة، من دون أن يشعرها بنفوره منها، حتّى لا يفقد وظيفته الروائية. يتعلل بانشغاله في ترجمة الكتاب التراثي، وينتقل إلى غرفة صغيرة على سطح إحدى البنايات، لكنّ سانشيا ما تزال تتسلّل في ليال عديدة لتزوره بحجة السؤال عن الترجمة. وفي الليلة التي تتوقّف فيها إيفا عن صدّه، وتدّعن لعشقه الجنون، يكون قد توقّف عن صدّ سانشيا، وسقط في أحضانها:



"تلك الليلة، ابتسمت الملوثة في وجهي، بل ضحكت بعمق، وشاهدتُ جسدها كله ضحكة، لم تقل مجنوناً ولا تافهاً، ولا إفريقيًا مشوه الجينات كما كانت تقول في الماضي. كانت أظفارها مصقولة وملونة بالبنفسجي، ولم تكن أظفار خدش ولكن أظفار مودة. اقتادتني إلى بيتها الذي كان فقيراً جداً، وفي حي فقير ممتلئ بباعة التبغ والزجاج وأصوات النساء المسنات والصبية، وكانت تمسك بيدي ولا أحس بأني جائع أو عطشان. وقفت أمام بيتها لحظات أتأمل الصداً على مفاصل الباب، والخشب المأكول بالأرضة وقطة بنّية هزيلة تتلوى، ولم أدخل حتى بعد أن صرّ الباب وهو ينفتح وانكشفت صالة صغيرة معلقة في واجهتها لوحة. تركت إيفا التي طاردها لأكثر من ثلاثة أشهر، مفتوحة العينين تنظر إليّ في جزع وأسرعت إلى سانشيا التي لا أدري كيف سكنتني فجأة كممحة، تحت آثار عشقي وتفاهتي. كانت معي الآن في غرفة رحبة مزدانة بالأساطير، داخل بيت كله بنفسج ونشوى، وعلى سرير وردي من ملاءاته حتى أغطية وسائده. قميصها أخضر شفاف، وجسدها كله حياة.. لقد ماتت إيفا في ذلك اليوم، وعاشت سانشيا".

نهاية لم أفهم مغزاها تماماً، وعزوها إلى عدم معرفتي بالقراءة. لا بدّ أنها نهاية كبيرة في نظر الذين تدربوا على القراءة، كتابة جن كما قالت صاحبة سروال الجينز باهت اللون. لقد كنت متعاطفاً مع الراوي منذ البداية، أركض معه في مطاردهاته لإيفا، أنجرح معه بالأظفار الخشنة، أحتنق عندما يحتنق، وبالمقابل أغتاظ من سانشيا التي تحاول استمالته مستغلة الوظيفة التي منحتها له. لكنني الآن مشتت بفعل النهاية، مشتت جداً ومنتش في نفس الوقت. لقد قرأت رواية أخيراً، وغداً سأكتب واحدة.

بالنسبة للموريتاني ولد البني فقد عادت سائحته الرومانية إلى الفندق مرة أخرى وبجئت عنه، كما توقع الراوي، وسافر معها إلى أوروبا، وهكذا انتهى ذكره في الرواية مبكرًا، بينما بقي النادل أليكساندر يجي حتى الفصل الأخير، كان يرد ذكره بين حين وآخر.

كان قصر الجُمَيَز غارقًا في فوضاه المرتبة، نادلاته الإثيوبيات يرحن ويجنن في تناغم. عدد من الأشخاص يحملون سمات قبائل الشرق المهمشة، يتهايمسون في ركن، وحزبي عجوز من الذين لم يعد لهم وقع عند أجهزتنا الأمنية، مستغرق في صحيفة كتب على صفحاتها الأولى بأحمر عريض:

البلاد في خطر.

من قال إن البلاد في خطر؟ ومن سمح لتلك الصحيفة أن تكتب عنوانًا عريضًا كهذا؟ أنا واثق برغم تقاعدي أن زملائي الذين ما زالوا في الخدمة قادرين على إبعاد أي خطر قبل أن يحدث. كنت أفكر ولا أدري أي خطر بالضبط يتحدث عنه العنوان العريض. أفكر أكثر.. لعله خطر الفيضان أو المجاعة، أو انفلونزا نبات القصب التي سمعت بأنها تحدث عند مضغ قصب السكر.

لم يكن (أ. ت) موجودًا على طاولته المعتادة، وشاهدت الفتاة صاحبة سروال الجينز، تجلس منفردة على ذات الطاولة، وقد سقط الغطاء الوردي عن رأسها الصغير، كاشفًا شعرًا مصبوغًا ببني لا يناسب شعور بنات الوطن. اقتربت في محاولة ألا تحدث ساقبي البذيئة صوتًا على البلاط المقشر، لكن الفتاة انتهت كما يبدو، رفعت رأسها وأنا أهم بالجلوس على مقعد لم يكن قريبًا منها، وليس بعيد أيضًا.

شكر الله.. أليس كذلك؟

كانت تسأل وعيناها على ساقى اللعينة، وأحس بالخشب يتململ، وأني خطأ كبير في ذلك المكان، وأتساءل في سري.. لماذا اسم شكر الله بالتحديد ما خطر على بالها في تلك اللحظة؟  
عبدالله حرقش.. عبدالله فرفار.

صحيح.. آسفة.. أتيت مرة واختفيت..

كانت قد أبعدت نظراتها عني، فتحت حقيبتها الجلدية المقشرة عند الأطراف. أخرجت مرآة صغيرة وضعتها أمام وجهها المبقع بآثار من حب الشباب، تتأمله في شروء، واستطعت أن ألحظ داخل الحقيبة إصبعاً وردياً لطلاء الشفاه وآخر بنفسجياً للأظفار، وصندوق علكة صغير من ماركة تشيكلكت، مفتوح عند حافته وقد أخذت منه حبتين. لم تبد لي رغبة في حوار من أي نوع، وأحسها ما تزال متوجسة وكان لا بد أن أعرف أين الروائي.

- أين الأستاذ اليوم؟

أخذه.

ردت في نفور وقد أعادت المرأة إلى حقيبتها. أغلقت الحقيبة ونهضت واقفة ولم تنس أن تعود ببصرها برهة إلى ساقى البديئة قبل أن تسحبه.

من أخذه؟

من يكون في رأيك؟ اثنان تافهان.. من تلك الأجهزة السخيفة.

طعنتني بلا شك، حين وصفت زميلين محترمين يؤديان واجبهما بالتفاهة. وصفت أعين الوطن الساهرة للحفاظ على أمنه بالسخف. فتاة مندفعة يمكن أن تطأ خلية للنحل وهي تدري أنها خلية للنحل.. الآن وطأت خليتي ولا تعلم، وحتى لو كانت تعلم فما عدت الخلية القديمة. أخفيت اهتزازي بسرعة ولحقتها قبل أن تتحرك واضعة حقيبتها

على كتفها، وحب الشباب المتقي في وجهها يبدو أسود داكنًا وأشعة الشمس تسقط عليه من زجاج المقهى..

إلى أين أخذوه؟

.. لا أدري.. من يعرف إلى أين يؤخذ الناس؟

— ماذا فعل؟

ولم تجب عن سؤالي الأخير لأنها كانت قد ذهبت، وأتلّفت في قلق باحثًا عن أحد الذين كانوا يشغلون مائدة الروائي حين جلست إليها تلك المرة، الشاب النحيل حامل الكتابين الذي سأل عن فكرة رواية إيفاء، الفتاة ذات الثوب البنفسجي التي انفتحت ركبتيها ولم تغلقهما، العجوز الذي كان يدخن بصمت ويده تهر، وذلك الصحفي المعروف بحواراته المفبركة. لم يكن هناك أحد أسأله، وأقوم من مقعدي محبطًا. كنت أحمل طعم إيفاء في حلقي وأردت أن أبهر به الروائي، حين يعرف أنني قرأته حتى لو كانت قراءة غير واضحة لدى ذهني تمامًا.. أردته أن يحترمني وأن يساعدني لأبدأ مشروعني الملح..

كانت إدارة الأمن الوطني، حيث كنت أعمل سابقًا، مبنى كبيرًا من عدة طوابق عليا وطابق تحت الأرض مخصص لاحتجاز الخونة. كان بلا لافتة ولا إيجاء أنه مبنى أمني، ويعرف الناس كلهم أنه كذلك. كان يقع في وسط شارع ترابي، وفي واحد من أحياء العاصمة الراقية. اضطررت أن أركب عربة للأجرة عثرت عليها بصعوبة، حتى أصل. دفعت لسائقها العجوز ما طلبه من دون مساومة وقد تصدّع رأسي من ثرثرته التي كانت تقارن الزمن التافه الذي نعيشه، بالزمن الماضي العظيم. ودخلت باحثًا عن (ر. ج)، كنت واثقًا أنه أحد الرجلين اللذين اصطحبا الروائي من مقهى الحمير ووصفا بالتفاهة، فقد لُحِث في مرثي الأولى، يحوم هناك، وتصدّعت عدم رؤيته. لم أكن أريد مصافحة

شخص ربما يعرفه الذين أردت رؤيتهم، ويعرفون وظيفته ومن ثم أطرده قبل أن أتعلم حيل الكتابة.. ليس بسبب وظيفته المحترمة بلا شك، ولكن بسبب النظرة العامة إليها.

كان (ر. ج) موجودًا، وصافحني في حرارة، وكان مستغربًا أنني عدت.. ولا بدّ ظن أنني أعدت إلى الخدمة مرّة أخرى.

لا.. ليس كما تظن.. ولكن أسأل عن الروائي (أ. ت).

رفع حاجبيه في دهشة..

- هل هو قريبك؟

أبدًا.. لكن يهمني أمره.

لم أقل فيم يهمني أمره، وهؤلاء المجدون كما أعرفهم وكنت واحدًا منهم حتى عهد قريب، لا يعرفون عن الرواية سوى أنّها بذاءة تدخل في أحيان كثيرة ضمن خيانة الوطن، ولم أكن خائفًا للوطن، ولكن كاتبًا في بداية طريقه.

أخبرني الزميل بأن ملف الروائي قد خرج من يده، سمّي ملف (الطائر الذبيح)، وحوّل إلى المسؤول للبت في أمره. لم تكن هناك أيّ مهمة ولا حتى اشتباه، وكان ذلك إجراءً عاديًا نتخذه من حين لآخر لإثبات وجودنا، وأنا حريصون على أمن الوطن وسلامته. كان المسؤول يعرفني جيدًا بحكم عملي واحدًا من أفراد فريقه عدة سنوات أدّيت فيها واجبي كاملاً. في الواقع كان يخصّني بود ما، وعرفت أنه عارض تقاعدي القسري بقوة وكان ينوي توظيفي في مكان لا تستخدم فيه السيقان للركض أو حتى للمشي لكنّ معارضته لم تنجح. المسؤول كان مشغولاً جدًّا، وعدد كبير من الأفراد يدخلون ويخرجون، وأرى مشبوهين قدامى أعرفهم، وجددًا لم أرهم من قبل، يساقون إلى مكتبه وأجسادهم ترتعد.. وبالرغم من ذلك أوقف انشغاله لعدة دقائق

واستمع إلي، طلبت منه باختصار شديد أن يطلق الطائر الذبيح من قفصه إكراماً لعبدالله فرفار وخدماته الجليلة التي طالما أداها. لم يقل لماذا.. نادى أحد الأفراد المرابطين أمام مكتبه، كلفه بالمهمة وصافحي واقفاً على قدميه. كنت أخرج من مبنى الإدارة مرفوع الرأس، وطعم إيفاً قوياً في حلقي ونيتي في بدء الكتابة قوية أيضاً واضطرت لأن أخرج مندبلي القطني العريض من جيبي، أعطي به نصف وجهي، وأنا بالبواب.. كان الروائي (أ. ت) هناك، ينفض قميصه من تراب علق به، ويتجه إلى الخارج واحتك كتفه بكتفي في لحظة الخروج.

مساء اليوم نفسه، كنا نتحلق حول الروائي، على الطاولة التي ستشهد اليوم أول وجهة نظر أبدتها في كتاب. أنا بالقرب من الكاتب. صاحبة سروال الجينز باهت اللون أشرقت أكثر عما كانت عليه في الصباح، قرية أكثر مني وتكاد تدخل ضلوعه من شدة قربها. الشاب حامل الكتابين، وآخرون أشاهدهم لأول مرة، كانوا يهتفون بالعودة بعد غياب دام عدة أيام، ولم يكن يرد على تلك الأسئلة عن مكان غيابه. كنت أبتسم خفية، وأعرف أن الذي تأخذه ونعيده، يظل أسيراً لدينا حتى وهو في كامل الحرية. أعرف أن الروائي سيتجه بالحديث إلى مواضيع أخرى، وربما ينفي أنه كان في ورطة، ولولا أن شهوداً كانوا يعرفون أنه أخذ، لما عرف أحد ذلك. ابتسمت خفية وأحس بزهو كبير أنني محرره وأمتلكه في هذه اللحظة، حتى لو كان امتلاكاً خاصاً، لن يعرفه غيري.. كان يقول:

- في ذهني عمل جديد يا أصدقاء بدأت تتحدد معالمه.. سأكتب رواية بطلها لاعب كرة قدم في حارة فقيرة، وجد نفسه فجأة وزيراً.. ما رأيكم؟  
كل ما تكتبه يعدّ حدثاً أستاذي.

كانت صاحبة سروال الجينز باهت اللون هي التي تتكلم، وما زالت قريبة من ضلوع الكاتب، وأقرأ على وجهها مؤشرات وشوقاً لسؤاله عن روايتها لحظة حب، وتعرف جيداً أنه لم يكن في وضع يسمح له بالقراءة.

قرأت (على سريري ماتت إيفا).. تجربة جديدة تماماً ورائعة.. أودّ أن أهنئك عليها.

كنت أنا عبدالله فرفار من قال ذلك الكلام الكبير، وكأني أعرف التجارب الروائية كلها لأحدّد أن هذه قديمة وتلك جديدة، كما قلت إن إيفا كانت روايتي الأولى التي أقرأها، التي خرجت منها بأشياء وغابت عني أشياء أخرى، لكن لا بأس يمكنني أن أتحدّث. كان الكاتب يهجم بالرد على إطرائي رافعاً رأسه الذي استعاد غطرسته، وأسرع بالسؤال الذي أحتزنه من ساعة أن أكملت إيفا:

لكن لماذا ترك الراوي إيفا، تلك الساحرة التي تعب في مطاردتها، فجأة، وذهب إلى سانشيا ماروف التي كانت تطارده ويهملها طوال الوقت؟

هذا متروك لتقدير القارئ أخي نور الدين.. هو من يحكم على سلوك البطل بعد قراءته للرواية، وليس أنا.. أنا كتبت وانتهيت.

اسمي عبدالله حرفش.. عبدالله فرفار

أسرعت بالرد وأحس بأنه يتعمد نسيان اسمي، ويخترع لي اسماً آخر لا يشبه اسمي ولا يقترب منه، كما فعلت صاحبة سروال الجينز حين التقيتها في الصباح. كان يمكن أن يقول أخي من دون نور الدين، ليتني أستطيع إخباره بأني أمتلك حريته، أمتلك جلسته المتغطرة هذه، وشاهدت قميصه ممتلئاً بالتراب، وأنفه باتجاه الأرض وأحبرني أحد

المجنّدين بأنّه برك على ركبتيه، يستجدي سيجارة. لا أستطيع، سأفسد الأمر، وروايّتي على وشك أن تكتب.

سؤال آخر أستاذي.. هل كلّ تلك الأحداث حقيقية؟، أعني هل وقعت بالفعل؟.. وهؤلاء الأبطال هل هم موجودون في الواقع؟ ليس كلّ ما يكتب حقيقة بالطبع أخي فرفار.. توجد حقيقة ويوجد خيال، والعمل الناجح هو الذي يوهم القارئ بأن الخيال حقيقة.. أنت تملك محاولات في الكتابة.. أعتقد أنك أخبرتنا بذلك.

نعم.. لدي محاولات.. سأطلعكم عليها قريباً. كنت أتحديث في ثقة، وقد بدأت أفكار غير واضحة تتقافز في ذهني، ما علي سوى توسعة الخيال، والصبر، سأقلّد طقوس الروائي (أ. ت) التي ذكرها من قبل، أقلدها كلّها، وأرى أي طقس منها سيمنحني شيئاً، وربما تصبح لي طقوسي الخاصة في المستقبل. كانت الجلسة تنفض، وأجرّ ساقي مبتعداً ولا أحد ينظر إليها.. لقد اعتادوا على شكلها وانجرارها في الأرض بلا شك. وغداً يعتادون على صوتي الذي يحاورهم أكثر.



مساء غير عادي في بيتي، وأبدأ الآن خطوتي الأولى في سكة الكتابة، متبعًا طقس الأناقة أولاً، بعد أن أحضرت بذلتي الرمادية المعدلة من عند الخياط (خ. ر)، سلّمني إياها بعد خمسة عشر يومًا مغسولة بالبخار ومكوية جيدًا، وفردتها أمامه أتفحصها في تأنٍّ خوفًا من أن تكون ملوثة بدهن ربما نَزَّ من شطائره التي يأكلها أثناء الخياطة. لم يكن في ذهني أي فندق راق لأجلس في بهوه أكتب، ولا كنت مسافرًا لأكتب في صالة مطار ممثلي بالإيجاء كما يقول (أ. ت)، فقط زينت صالة بيتي بعدة مزهريات إضافية وقطعتين من الكريستال اشتريتهما من دكان (طوبيا) للنحف والكريستال. وكانت رائحة معطر الجو بالنعناع تفوح في المكان وتجعله موحيا. على الجدار المقابل كانت صورتي وأنا في الخامسة عشرة أحمل قوسًا كنت أستخدمه في صيد العصافير، معلقة تطالعني. بجوارها صورة لأمي الراحلة، تجلس على سرير من الخبال وبين يديها مروحة من السعف.

كان يومي مشحونًا جدًا، منذ الصباح المبكر خرجت أخطب جارًا ساقى البذينة. تحرّيت عن اليساري (م. م) تاجر السيارات المستعملة بواسطة خبرتي في التقصي، عرفت أنه درس فنون الطبخ في موسكو وتخصّص في طبخ شرائح اللحم المتنوعة في صوص الطماطم والبازيلا، لكنّه لم يعمل في مجال تخصصه وكانت مجرد شهادة علقها في بيته. جرفته السياسة لفترة طويلة قبل أن يعتزل ويتجه لتجارة السيارات.

اكتشفت أنني أعرف كل تلك المعلومات من قبل وقد راقبته طويلاً، لكنني نسيتها كما يبدو بفعل الزمن أو بفعل شغفي لدخول عالم الكتابة. لم يكن (م. م) بطل إيفا بالتأكيد، ولا تشبه قصته قصة البطل. كان متزوجاً إحدى قريباته، ويعيش في حي شعبي بعيداً عن البنفسج والغردينيا والسرير المفروش بالأساطير. يوجد خيال ويوجد واقع.. هذا ما قاله (أ. ت).. وربما يكون صادقاً في قوله.

عند الظهر زارني ضيوف مباغتون لم أكن أتوقعهم، واستغربت من زيارتهم، وأنا أفتح لهم الباب وأجلسهم على الصالة، أقدم لهم عصير التبليدي الذي أحتفظ به دائماً مخلوطاً وجاهزاً.. كنت أحبه كثيراً. كانا العمدة (ث)، وزوجها المدلل الرياضي بعد أن تعافى تماماً من إغمائه بحبوب الأنثيفان، وعاد إلى زيه القديم، وحذائه ذي الخيوط المنسلة، وعلق ميدالية القصدير على صدره وبجوارها ميدالية أخرى صنعها عند حداث متخصّص في صنع التوافه، مكتوباً عليها اسمه، وتحت مباشرة: بطل مسك الختام. كان ما أثار استغرابي أكثر، أن المشجع حفّار القبور (ع. د)، كان برفقتهم، وعرفت أنه هو من أحضرهما إلى بيتي حين ذهب يشكوني.

بادرني المدلل بصوته الخشن. تحبط على كتفي بيد كعود حطب جاف، وأحسُّ بالردة أكثر من إحساسي بالوجع.

أعد إلى الرجل صحيفته يا فرفار.. لا يمكنك الاستيلاء على تذكارات رجل حي.. أعدها فوراً.

- أي صحيفة؟

رفعت حاجبي مستغرباً..

- تلك التي تحوي صور تكريمه، يتهمك بسرقتها، ومحاولة تزويرها لتضع صورك مكانها. أعد صور الرجل فوراً يا فرفار.

ردد المدلّك وأخرج من جيبه في نفس اللحظة واحدة من أوراقه المقصوصة التي وزّعها على الذين جاءوا للاطمئنان على صحته أثناء تلك الوعكة. كانت حمراء هذه المرّة، عرضها أمام وجهي لحظة قبل أن يضعها في يدي واستطعت أن أقرأ ما كتب عليها: إلى عبدالله فرفار.. نسيبي الذي لم يخلدني أبداً.. شكراً لإعجابك.

هذه مميزة أليس كذلك؟.. قصصتها خصيصاً لأجلك.

كان المشجع حفار القبور يجلس مهتزاً على طرف مقعده، ملابسه خضراء صوفية ومسبحة اللالوب ما تزال معلقة على الصدر، وحلقة الروماتيزم حول معصمه الأيمن. كانت عيناه ذاهلتين.. عينا مجنون أو محموم بالملا رياء.. العمة (ث) أيضاً ساكنة على مقعدها، وكنت أصرخ انفعالاً:

ما هذا الكلام الفارغ؟.. ما حاجتي لصور رجل مجنون لأسرقها؟.. هل نسيت من أنا؟

فجأة تذكرت أنني أخذت صحيفته بالفعل حين تركها على الأرض بجوار ذلك الحجر النائي الذي كان يجلس عليه وانصرف ولم يلحظ حتى أنني أخذتها. لم أسرقها حقيقة ولكنني احتفظت بها من أجله وأنا متأكد بأنه سيعود لطلبها يوماً، ولم يخطر ببالي قط أن يطلبها بهذه الطريقة الغريبة. المشجع حفار القبور جنّ بالتأكد.. ليتهم تركوه بلا تكريم.. ليتهم. كان سيستمر مشجعاً كبيراً، وحفّاراً للقبور في مقبرة عمران حتى النهاية. نهضت من جلستي وتوجهت إلى غرفتي الداخلية حيث احتفظت بالصحيفة، كانت ملوّنة بغبار كثيف ونفثتها، سلمتها للمشجع في صمت، أخذها، نهض واقفاً وانصرف. كانت مشيته، مشية ضائع في الصحراء، يتلفّت يمنة ويسرة. وفي صوت هادئ حاولت أن أبيّن للمدلك ما حدث، لكنّه أسكتني بصوته الخشن:

- حتى لو كان مجنونًا كما تقول.. فهو صاحب تذكارات ويعرف تذكاراته جيدًا.. هيا يا امرأة.. هيا.

أمسك بيد العمّة في خشونة، وهو ينهض واقفًا. وجهه لامع وحليق، وسيجارته من ماركة برنجي المحلية... وكانت العمّة على غير عادتها، منقادة في سلاسة ولم تقل شيئًا منذ جاءت وحتى انصرفت. لعلها انبهرت بإغمائه الهمجي على خشبة المسرح بالرغم من أنها لم تشاهده، أو لعلها تخشى فقدته وقد غدا ملفتًا للنساء. وكنت قد شاهدت رفيقته التي أدت دور الحبيبة المفقودة، قريبة جدًا من سريره أثناء رقاذه في المستشفى، وكانت شابة تم تعديلها لتصبح عجوزًا تلتقي بحبيب عجوز، لا أدري.. لا أدري بالتحديد.

كان يقيني قد ازداد بأنني سأكتب المدلّك، إذا لم أكتبه في روايتي الملحّة هذه، قطعًا سأكتبه في رواية أخرى أنجزها فيما بعد. شخصية غنية بشكل لا يصدق كما سمعتهم يطلقون على مثل هذه الشخصيات في قصر الجميز.. حفار القبور أيضًا يمكن أن يكتب.. الرجل المتزن الشهير حين يفقد عقله من جراء تكريمه بواسطة رئيس البلاد.. يا الله. وحده الخيال الواسع يستطيع أن يحوله إلى تحفة..

كنت قد مررت بتجارب كثيرة أثناء خدمتي كما ذكرت، بعضها أسعدني بوصفي أديت واجبًا من أجل البلاد، وبعضها كان يمكن أن يحزنني لأنني ظلمت أحدًا، أو سرقمت مستقبلًا من أحد، لكن لم يكن ثمة مجال للحزن في عملنا وقد تدرّبنا على إلغاء الحزن. وأعرف زميلًا قاد عمه إلى ساحة رمي الرصاص وهو يعرف تمامًا أنه ليس رصاصًا من ورق. بائعة الهوى النائبة في سايعون كانت خاطفة بلا شك، وأنا خضت تجارب لا أخطأ.. وقد بدأت أبحث في ذهني عن بعض تلك التجارب يمكن أن يصلح للطقس الأنيق، طقس ارتداء البذلة الرمادية

المعدّلة، والإمساك بقلم الباركر الأسود المعبأ حبراً، ودفتر الأوراق الصفراء أمامي ينتظر أن أخطّ عليه شيئاً.. المدلّك وحفار القبور، سأحاول كتابتهما في طقس العري أو طقس التشرد في الشوارع، إذا ما أخفق الطقس الأنيق، ولن أخوض في وحل مغنية الزار أمّونة البيضاء لأنني لا أملك إمكانيات استئجار بيتها ونزواتها في الوقت الحاضر. أما سرقة محفظة من تاجر مواشٍ أو حقيبة يد من امرأة تسير في الطريق، والكتابة داخل السجن، هذا ما أبعدته عن ذهني تماماً. لم يكن ماضيّ يسمح لي بخوض تجربة كهذه، وحتى لو خضتها بلا سرقة بواسطة معاري من السجّانين.

الفكرة جاءت يا الله جاءت فجأة، وقفت لأرقص منتشياً، ناسياً أن الساق الخشبية كانت خارج الخدمة، وموضوعة أمامي على المقعد المقابل، وكنت قد نزعته خصباً حتى أندمج ولا أتحرّك أثناء الكتابة، كدت أسقط ولم أبتئس، سأكتب عن قضية السكرتيرة (ش. ن) التي عرفت في دوائرنا بقضية (التفاح) لأن بطلتها لم تتوقف عن قضم التفاح حتى وهي تخضع لاستجواب مرير، قضية شهدت وقائعها منذ أكثر من عشر سنوات. سأغيّر الأسماء كما يفعل الروائيون، وأحاول أن أكون خيالياً.. سأحاول. أمسكت بالقلم الباركر وانحنيت على أوراقتي. كنت أكتب والليل يمضي، ومئات الشياطين تكتب معي..

(راقبتها في ذلك الصباح مراقبة دقيقة، كنت أقف على ناصية الطريق مواجهًا المبنى الذي تعمل به سكرتيرة في شركة (دلثا نون) لتصدير المواشي، أرندي ثوبًا ممزّق الكمّين، مزقته بيدي، وأضع على عيني نظّارة سوداء من ماركة بيرسول، كسرت إحدى عدستها عنوة حتى تبدو قديمة. مرّ بي شحاذ يحمل سلّة من سعف النخيل على ظهره وسأل عن صدقة، لم أعطه شيئًا، ودخل المبنى. مرّت امرأة ترتدي ذهبًا كثيرًا على عنقها وساعديها، قالت: السلام عليكم، ودخلت. وهبط رجل من سيارة أجرة قديمة، أحد أبواها مكسور، ويقودها سائق لا يشبه سائقي عربات الأجرة إذ كان يرتدي سروالاً من القطيفة الخضراء، ويضع شريطاً غنائيًا لأحد المطربين الجدد، وأسمع أغنية (هبدلة.. هبدلة) التي انتشرت أخيرًا، تنبعث منه. دخل الرجل إلى المبنى، وتحرك السائق مبتعدًا. بعد ساعتين خرجت السكرتيرة (ش. ن) من المبنى، في يدها تفاحة مقضومة حوالي ثلاث قضمات، وكان يرفقتها الشحاذ والمرأة التي تلبس الذهب، والرجل الذي هبط من سيارة الأجرة. كانوا يضحكون، فجأة التفتت (ش. ن) ناحيتي وكان الشارع قد بدأ يزدهم، حيث توجد شركات كثيرة في ذلك المكان. توقفت عن الضحك وسمعتها بوضوح تخبر رفاقها، بأن القهوة اليوم ستكون بلا سكر. لم أفهم عبارتها، وأظنّ أنها شفرة معينة متفق عليها بينهم. رأيت جمعهم يتفرق، كلّ يذهب في اتجاه، وعادت السكرتيرة للدخول إلى

المبنى مرّة أخرى، وظللت واقفاً أفكر في عبارتها حتى الظهر وانتظر خروجها، لكنّها لم تخرج.. في الصباح التالي جئت مرّة أخرى، وكنت هذه المرّة أرتمي ملابس راقية: قميصاً أزرق وسروالاً أسود وربطة عنق حمراء، وأحمل عدد اليوم من صحيفة (البيغاء) المتخصصة في انتقاد الحكومة، والتي كانت تطبع بطريقة سرية وتوزع بسرية أيضاً، لكننا نعرف كيف يحدث ذلك. ظهر الشحاذ مرّة أخرى، طلب صدقة وأعطيته هذه المرّة. جاءت المرأة صاحبة الذهب وكان ثوبها بنفسجياً شفافاً وعلى حافته يوجد شريط أبيض يبين أنه من ماركة راتي الغالية. هبط الرجل من عربة الأجرة ذات الباب المكسور نفسها، والشريط ما زال يثبت أغنية (بهدلة.. بهدلة)، دخل الرجل وتحرك السائق. ترددت كثيراً في تلك اللحظة بين أن أدخل المبنى أو أستمرّ في المراقبة.. ولم أكن أستطيع أن أخرج جهاز الراديو اللاسلكي من تحت ملابسني لأستشير الإدارة.. خفت أن يلفت النظر.. و..).

— لحظة.. لحظة لو سمحت يا حرفش فرفار.

كان صوت الروائي (أ. ت)، يخاطبني وقد غدا صوتاً مرتعشاً بصورة واضحة، وألمح في تلك اللحظة عينيه مذعورتين، ركبتيه ترتعشان أيضاً، ونقاطاً من العرق تلمع في وجهه ويتلفت في المكان كأنه يبحث عن شيء ضائع.

كنت قد اصطدته بعناية في ذلك اليوم، انتظرته أمام باب قصر الجميز منذ الصباح الباكر، وقبل أن يأتي أحد من معجبيه، خاصة تلك الفتاة صاحبة سروال الجينز التي أحسست أنها لا تحبّ وجودي بينهم، وربما تفسد خطتي في تعلم الكتابة بجلستها القريبة من ضلوع الكاتب. كنت أريده أن يسمع بدايتي التي اجتهدت طوال ليل أمس في كتابتها بخطّي الرديء على ورقي الأصفر الذي كان مخصصاً في السابق

للتقارير، مرتدباً بذلتي المعدلة بمقص الخياط (خ. ر). الطقس الأنيق الذي سأكتب به رواية (التفاحة)، قصة السكرتيرة الحسنة التي كانت تعمل منسقة لشبكة من الخونة مهمتها تقويض الأمن واستطعنا إحباط مخططاتها في الوقت المناسب. جاء الروائي متبختراً وسيجارة في فمه، ووجدني أمامه. وأريده وحده، أن يكون الأمر بيني وبينه، وأن أحصد إعجابه أو نصائحه حتى أحصل على رواية جيدة، أعود بعد ذلك لأسمعها للآخرين في قصر الجميز. رجوته أن يصحبني إلى مكان آخر لأريه البداية، ووافق بعد جهد كبير مني وهو ينظر إلى ساعة ذهبية على شكل قلب، تحيط بساعده.

جلسنا إلى طاولة متسخة جداً في مقهى (البئر)، أحد أسوأ مقاهي العاصمة على الإطلاق، بئر قدرة وزبائن معظمهم من تجار الإبل الصحراويين، الذين يزورون العاصمة من حين لآخر بغية التسوق أو زيارة المستشفيات أو وضع ثرواتهم في البنوك. يستريحون في مقاه كهذه ويتحدثون بلهجة عدائية وألفاظ غير محتشمة. وكان أحدهم في تلك اللحظة بالذات، يتحدث عن لقاح الإبل بصوت مرتفع وضحكة خليعة، واصفاً بروك الحمل فوق الناقة وما يحدث بعد ذلك. لم أكن من اخترت ذلك المقهى ولا اختاره الروائي، ولكن ساقى البديهة حين أرقها المشي وأحسست بها تتخلخل، وكنا على أبوابه.

من أنت؟

هزني صوته بشدة، ولا أعرف لماذا، لكن قطعاً هي السطور التي لم يدعي أكملها من روايتي. لقد غار مني بلا شك، أحس بي كاتباً قد يهز لمعانه إذا استمر، وأراد إسكاته. لا أريد أن أخمن أكثر ولكن أودّ لو أعرف السبب

أنا عبدالله حرفش.. عبدالله فرفار.. أنت تعرف ذلك.



- أقصد ما هو يتك؟

لم أفهم أستاذي.

كانت ركبته قد كفتا عن الارتعاش، لكن عينيه ما تزالان مذعورتين، وحبّات العرق على وجهه ازداد عددها. رأيته ينادي الجرسون المشغول بالضحك الممجى وسط تجار الإبل ويطلب قهوة بلا سكر، وأمامه كوب قهوة بلا سكر لم يرشف منه بعد. ما قرأته ليس بداية رواية، ولكن تقريراً أمنياً.

كشفتي بلا شك، كشفتي.. كشفتي.. ليس الروائي ولكن غيائي الذي وظّفته من دون أن أدري في كتابة تقرير. إنه نفس التقرير الذي كتبته عن الواقعة منذ أكثر من عشر سنوات وما زال موجوداً في ملف التفاحية داخل الإدارة، وقد قفز إلى الأوراق الصفراء من دون أن أحسّ بقفزته. الآن فقط أتذكر وأودّ أن أخرج من هذه الورطة.. كيف.. كيف؟ أوشكت أن أبكي في تلك اللحظة، لا أريد أن تضيع مني فكرة كتابة الرواية وقد أعددت لها الكثير، لست في الخدمة.. لكن دودة الخدمة اللعينة هي التي تظهر في أي وقت. لم يكن بالتأكيد ثمّة مخرج، سوى أن أصارح الروائي بكل شيء، ولعله يستمر في تشجيعي.. كان يسألني مجدداً:

- لماذا أحظى بشرف متابعتكم يا سيد؟.. أربعة أيام في ضيافتكم، هربت فيها الأفكار كلّها، والآن كاتب تقارير بساق خشبية يقرأ (على سريري ماتت إيفا) ويجلس إلى طاولتي يحاورني.. تطوّرت أساليبكم.. تطوّرت. سيفاجأ الجميع حين يعرفون، خاصة صديقتنا المبدعة.

ذكر اسم (س)، وحمّنت أنها الفتاة المندفعة، صاحبة سر وال الجينز باهت اللون واستغربت من تسميتها بالمبدعة وقد تسلّم مخطوط

روايتها ذلك اليوم في استياء ظاهر. نهض من أمامي لينصرف ولا يبدو راغباً في سماع ردّي. أمسكت بشيابه بقوة لدرجة أن تجار الإبل ظلّوها مشاجرة بيننا، ورفعوا عصيهم لفضّها. رجوته أن يجلس حتى أوضح له، وحين استجاب في النهاية وجلس، كان يطلب قهوة بلا سكر للمرّة الثالثة وأمامه كوبان منها لم يمسا.

حكيت له كلّ شيء: وظيفتي السابقة في جهاز الأمن الوطني، حادثي المباغت حين كنّا نراقب الطريق المؤدي إلى مزرعة مشبوهة، فقدان ساقي وأحد زميلي وإصابة الثالث بالشلل الرعاش الذي لم يشف منه قط، بائع الورد البنغالي في نيس حين كتب الرواية، الإسكافي الفقير في رواندا حين كتب، بائعة الهوى الثابتة في سايجون وحصادها الرهيب، إلحاح تلك الفكرة المجنونة أن أكتب رواية، وماذا فعلت من أجل ذلك. لم أت بأي سيرة للمدّك زوج العمّة (ث) ولا المشجّع حفار القبور ولا غيرهما من الشخصيات الأخرى التي صادفتها في حياتي، واعتقدت أنها تصلح للكتابة. كنت خائفاً أن تسرق والذي يملك أدوات مستنّة مثل (أ. ت)، كتب بها رواية إيفا وغيرها، يستطيع أن يسرق شخصي ويكتبها ولا أستطيع حتى تمييزها داخل نصوصه. كان يستمع إلي بلا شك وكنت على وشك أن أخبره بأنني من أخرجته من تلك الضيافة التي ذكرها، لكنني أحسست به قد استرخى تماماً، شرب أكواب القهوة الثلاثة دفعة واحدة. ولم يطلب كوباً جديداً.

- حسناً يا فرفار حرفش.. أنا أصدقك حقيقة.. بل أهنتك على هذا التغيير الكبير.

كان يضع يده على كتفي في مودة ويتسم، وأحسّ به في تلك اللحظة كاتباً حقيقياً تغاضى عن كلّ شيء مخز حدثه به، واحترم رغبتني الجديدة في التغيير. قطعاً سيشجّعني على تطوير الخيال، على

تطوير اللغة.. أنا أحبه الآن وأودُّ لو أصبحنا صديقين. وفي اللحظة التي استرخيت فيها تمامًا، كنا بالفعل صديقين.. نتبادل حديثًا هادئًا.

هل تعرف أطوار نمو الحشرة يا فرفار؟

نسيته.. كانت في درس العلوم في المدرسة الابتدائية.

أذكرُك بها.. البيضة تتحول إلى يرقة وهي مخلوق دقيق، ثم إلى

شرنقة داخل غشاء ثم تخرج من الغشاء لتصبح حشرة كاملة.. هل

تذكرت الآن؟

- نعم.. نعم.

اليرقة قد تنمو وقد تموت قبل ذلك. الحشرة في الواقع لا تستطيع

أن تحافظ على يرقاتها من الموت باكراً إذا كان سيحدث، لكنك

تستطيع.

لم أفهم أستاذي.

كنت حقيقة لا أفهم ماذا يقصد، ولا استطعت أن أجد رابطاً بين

كتابة الروايات وأطوار النمو عند الحشرات.. سأستمع حتى أفهم.

- أنا أشبه الكتابة بأطوار نمو الحشرة.. أنت كتبت يرقة لن تنمو إلى

شرنقة وتكمل دورتها. هذا التقرير الأمني مجرد يرقة ميتة خرجت

من ذهنك.. حاول أن تطورها إلى بقية الأطوار. هل تفهم الآن؟

لم أفهم جيداً حقيقة، والذي فهمته أن الكتابة تحتاج إلى ثقافة

كبيرة لا أملكها في الوقت الحاضر. ليس قراءة تجارب السحرة وعادات

الزواج عند الشعوب، ثقافة كبيرة. ليس قراءة رواية واحدة فهمت

بعضها ولم أفهم البعض الآخر، ثقافة كبيرة، وعلي أن أسعى إلى الثقافة

حتى أكتب رواية. لم يزعجني أبداً أن بدايتي شُبهت باليرقة التي ماتت

في طور النمو، ولن يزعجني أن تكون بداياتي المستقبلية يرقات أيضاً.

قد أحاول تعديل ذلك التقرير الأمني اللئيم الذي كشفني، وتحويله إلى

بداية حقيقية ممتلئة بالخيال، وقد أمزقه، وأجرب طقوسًا أخرى، يمكن أن تأتي بي ببداية يدخل فيها المدلّك زوج العمّة والمشجع حفار القبور (ع. د). وكان أفضل ما فعلته في تلك الجلسة أنني لم أحسّ بالبوّس أو الاكتئاب، حين وصفت بكاتب التقارير ذي الساق الخشبية، لعل هذه الساق البديئة ميزة، تميّزني من الآخرين أكثر من كونها لعنة. وفكرت أنّها ربّما تساعدني كثيرًا حين أتشرد في الشوارع باحثًا عن رواية مشردة. في تلك الجلسة التي طالّت بيني وبين الروائي (أ. ت)، الذي لم يعد يبدو متعجلاً، وأقلع عن النظر في ساعته، عرفت أشياء كثيرة عنه لم أكن أعرفها. كان شخصًا بسيطًا جدًّا يختفي وراء غطرسة مصطنعة، عمل فيما مضى مدرسًا للرياضيات في المدارس المتوسطة وهجر مهنة التدريس حين دهمته أعراض الكتابة. لقد قرأ كثيرًا كما أخبرني قبل أن يكتب، وسافر كثيرًا، ويملك مكتبة ضخمة سيأخذني إليها في أحد الأيام، وكان في الواقع يشبهني في شيء واحد.. فهو لم يتزوج قط.

- قريبًا لن تكون في حاجة إلى استلاف طقوسي والكتابة بها.. ستتعرف إلى طقوسك تدريجيًا.

كلام مشجّع والله.. وبرغم ذلك سأجرب طقوسه الأخرى.. طقوس العري والتشرد، وأريه البرقات التي أنتجها. وبدا مستعدًا تمامًا للجلوس معي والاستماع إليّ في أي وقت، وفي هذا المقهى بالذات.. مقهى البئر، بعيدًا عن الجوقة كما سمّي رفاهه الآخرين الذين يجالسونه في قصر الجميز.. كان يقول..

- هذه أول مرّة أدخله وقد أعجبتني.. هنا لا يعثر عليك قارئ مزعج، إضافة إلى أن فيه إichاعات كثيرة.. أنظر.

والثفتُ إلى ناحية الصحراويين تجار الإبل، كان أحدهم قد خلع نعليه المصنوعين من جلد الماعز، وضعهما على الأرض، وصعد إحدى

الطاوولات، برك عليها رافعاً ثوبه، ومن تحته بانّت سراويل متسخة وبدأ في الصراخ.. كان يقلّد ناقة في ساعة المحاضر، ورفاقه يضحكون، والنادل الوحيد في المقهى يقف متسماً يتابع الطقس. ضحكت وضحك الروائي..

ورواية (لحظة حب) لصديقتك المبدعة كما تسمّيها، تلك التي أعطتك إياها مخطوطاً.. هل هي ورقة ميتة أيضاً أم حشرة كاملة؟ كنت أسأله، وأحس بالطرب في داخلي أنني أحظى بود كاتب لامع كان منذ ساعة فقط على وشك أن يقهرني.

اسمع يا فرفار.. موضوع اليرقات وما شابه ذلك، ينطبق عليك لا على الفتيات الجميلات واسعات العيون.. ورقة الفتاة تعادل حشرة كاملة عندك.. هذا ما نسمّيه مؤازرة الجمال.

إذن ستكتب لها تقديمًا.. أليس كذلك؟

- لا أعرف.. سأجد حيلة ما للهروب من ذلك التقديم وإذا ما فشلت في الهروب.. ساكتب بخذر.

كلّمته عن اليساري (م. م) الذي أصبح تاجرًا للسيارات المستعملة، وكيف شككت في أول الأمر أنه بطل إيفا الرائعة. فقط أضيف بعض الخيال إلى قصته، وتحرّيت أمره لأجده بعيدًا عن الرواية. ضحك وكانت أسنانه شبيهة بأسنان المدلّك زوج العمّة، أسنان مدخّن قسّم ربما عرف التدخين باكراً، وقبل أن يعرف الكتابة. وسيجارته العاشرة من ماركة برنجي المحلية، تشتعل بين أصابعه. لم يكن يعرف (م. م)، ولا زار موسكو إلا قبل عامين فقط بمناسبة ترجمة إحدى رواياته إلى الروسية، عاد بعدها ليكتب (على سريري ماتت إيفا) من وحي تلك المشاهدات التي بهرته هناك. وحين سألتني إن كنت أعرفه منذ فترة، وراقبته.. نفيت بشدة. لم أكن في الحقيقة متخصصاً في مراقبة كتّاب

الرواية ولا متعاطي الثقافة عموماً، ولا رأيت (أ. ت) بالتحديد رؤية واضحة، إلا في ذلك اليوم الذي أتيت فيه إلى قصر الجميز باحثاً عنه. كنت أسمع به، ولم يكن سمعاً كثيراً ولا متكرراً. وتلك المعلومات التي ذكرها عن نفسه ربما تكون محفوظة في إدارتنا، لكنني لم أكن أعرفها.

كان صاحب المقهى قد انتبه إلى وجود غربيين وسط فوضى زبائنه الصحراويين، وأبناء الريف التي يبدو أنه تعودها ولم تعد تثير انتباهه. شاهدته مرتبكا يغادر مقعده خلف الخزنة ويقترب منا، وأيقنت من خبرتي الطويلة في رصد الارتباك، بأنه متوجس من شيء ويبحث عن طمأنينة، وربما يمارس نشاطا يدعو إلى التوجس. قال: مرحباً.. مرحباً، وسحب كرسيًا إلى طاولتنا وجلس. كانت ابتسامته تكشف أسنانًا من الذهب رُصّت بعناية على طول فمه، صوته مثل صوت عذراء مضطربة، وعلى يده اليسرى خاتم كبير جدًا تلمع في وسطه فاروصة خضراء. قال الروائي وهو ينهض ويحثني على النهوض: - فُكّر فيه جيدًا يا قرفار.. ربما ينفع بركة من يرقائك.

## - 11 -

زيارتي لمكتبة أعلاف، لم تكن بغرض كتاب معين في هذه المرة. كنت ممتلئاً بشهوة أن أمتلك مكتبة بعدة رفوف مشحونة بالكتب، مثل تلك التي رأيته في بيت الروائي (أ. ت)، وكان قد أخذني إليه البارحة لأرى كيف يقرأ وكيف يكتب. التقينا في مقهى البئر مجدداً. شاهدنا صحراويين جددًا، يمارسون نفس الطقوس التي شاهدناها من قبل، وبعض أبناء الريف الشمالي، يمارسون طقوسًا مختلفة، وأحدهم يعزف على آلة الطنبور المنتشرة بشدة في الشمال. تحدث إلينا صاحب المقهى، وتحدثنا إليه، وكان بالفعل شخصية روائية، أكدها (أ. ت)، حين ذكرته بوحدة من شخصيات روايته (أبناء سعد المختارين)، تلك التي كتبها في السجن كما قال، وهو يتأمل وجهه النظيف، وعينه المكحلتين بإتقان، وابتسامته الذهبية التي لم تفارق وجهه في تلك الدقائق التي أمضاها جالساً معنا. قال بعد أن تركنا الرجل، وعاد إلى مقعده:

يمكنك جعله ضحية أو مضحياً.. ينفع في كلا الحالتين.

كيف؟

- الضحية من وقعت في فخ منصوب من دون أن تدري، وتكررت عليها الفخاخ بعد ذلك حتى أدمنت السقوط، والمضحّي هو الذي يذهب إلى الفخ بقدميه، ويظل باحثاً عن الفخاخ طوال حياته.. ما رأيك؟

ما رأيك أنت أستاذي؟

- أنا أرى أنه ضحية.. لو كتبته سأصنع له طفولة مضطربة في بيت ممزق، ووسط أسرة ربُّها قاس عرييد، وربُّتها مستهترة، تركت عيالها وفرت إلى ماحور. سأسكنه في حي ممتلئ بالجروح، مئات الفخاخ يمكن صنعها في حالته.

الكلام كبير جداً على عقلي، وصناعة الكتابة تزداد كل يوم تعقيداً، وما قاله الروائي يبدو سهلاً على لسانه وصعباً جداً لو كان قد خرج من لساني. أعرف أشخاصاً عديدين مثل صاحب المقهى وربما يفوقونه ليونة وتكسراً، أشخاصاً في طفولتي، أشخاصاً في صباي المبكر، زملاء في المدرسة وجيراناً في الحي الذي نشأت فيه، ولم يكن أحد يسميهم ضحايا أو مضحّين، ولم نسع أبداً للبحث عن بيئة صيرّهم هؤلاء أو هؤلاء.. شيء من الحقيقة.. شيء من الخيال، وتصنع كتابتك.. كان صاحب المقهى أمامنا حقيقة كبيرة، وما يمكن كتابته في حقه، خيلاً يحتاج إلى ذهن ناضج.

دخلت مكتبة أعلاف ومحفّطي ممتلئة بمجنيّات حسبتهما بدقّة، وأحلم بعشرة كتب دفعة واحدة على الأقل.. تكون النواة الأولى لمكتبي الوليدة. حين شاهدت مكتبة الروائي ذهلت.. ولم أتصوّر بتاتاً أن أحداً يمكن أن يكون قد قرأ كل تلك الكتب، وبعضها في علوم لا تمت للروايات بصلة كعلوم الطب والجغرافيا وحتى علم الفلك، لكنّ لماذا يقتنيها ما دام لن يقرأها.. أكيد أنه قرأها.. وأصبح كاتباً محترماً بفضل تلك القراءة.

- أنت مجددٌ يا عبدالله فرفار؟.. هل عثرت على شيء يدين الكاتب في رواية إيفاء؟

كان المسيحي (ر. م) يخاطبني بنفس وقاحته الجديدة التي تعلّمها بعد تقاعدي القسري، ناسياً صداقة مربية امتدّت بيننا سنوات طويلة،



ولا يبدو مقتنعاً بي قارئاً وزبواً جديداً لمكتبته يأتي باحثاً عن متعة القراءة فقط ولا شيء آخر. كان ثمة أفراد قليلون متباينو الأعمار، يتجولون بين رفوف الكتب، يقلّبون بعضها في تأنٍّ، ويلقون إلى بعضها نظرات متعجّلة. ولحت الرجل متوسط العمر الذي اشترى كتاب (الجنس في حياتنا)، يمسك بكتاب آخر اسمه (حياتك الجنسية بعد الخمسين)، ويبدو متلهّفاً لدفع ثمنه. كان ثمة شريط جديد يبيث من ركن المكتبة على التلفزيون القديم الموضوع هناك، ويظهر فيه صاحب المكتبة ببذلة حضراء ورباط عنق مورد، يتحدث في استطلاع للرأي أجراه التلفزيون المحلي مع عدد من عارضي الكتب. كان يتحدث عن كتاب يصف حضارة الصين العملاقة، وصل إلى مكتبته حديثاً.

قلت لك.. إنني خارج الخدمة.. أنت تعرف.

نعم.. خارج الخدمة.. أعرف.

قالها بلا مبالاة، وانصرف من أمامي يطالع محفظة الرجل متوسط العمر التي انفتحت في تلك اللحظة، ولحت فيها نقوداً قليلة جداً، خرجت كلّها ثمناً للكتاب. حاولت أن أشفق على الرجل ولم أستطع.. أحتاج إلى زمن طويل لتعود إلى العواطف. اتجهت مباشرة إلى رفّ الروايات، أخذت أتأملها كما أتأمل فتيات فائنات يسبحن في بركة، ثم أخذت أنتقي العناوين بعيني، يعجبني بعضها ولا يعجبني البعض الآخر. وحين فرغت من انتقائي، سلمت المسيحي ما طلب وخرجت لا ألتفت إلى نظرة الاستغراب التي كانت في عينيه. غداً سيعرف كل شيء حين يأتيه كتابي مطبوعاً ليضعه في مكتبته، كنت أحمل كيس الأعلاف ممتلئاً... أفكر في المسيحي صاحب المكتبة بطريقة الروائي (أ. ت.).. هنا لا يوجد ضحية ولا مضحّ، ولكنّ رجلٌ صلد يتاجر في الكتب حالها وحرامها، عريها وسترها، ولو قدّر له أن يكتب في رواية، سيكتب

بطريقة التقارير الأمنية.. اليرقات الميتة. تاجر كتب صلد ومراوغ، وحاد ومستعدّ للموت من أجل قناعاته.. ربّما بالنسبة إليّ وأنا بذلك الخيال المتعثر ولكنّ بالنسبة للروائي (أ. ت)، سيكون ثمة ماض غريب ومستقبل أغرب.. قرّرت أن أسأل الروائي وأرى ماذا يقول، وتذكّرت في نفس اللحظة أنني كتبت من قبل تلك الأوصاف الخاصة ببائع الكتب في تقرير قديم جدًّا، ما زال موجودًا في ملفّه لدى إدارتنا.

عثرت على خزانة صغيرة من الخشب، مكوّنة من خمسة رفوف، في أحد محلات النجارة القريبة من مسكني، باعني إياها النجار بثمن معقول. حملتها على سقف عربة ركشة بعد أن أحكمت ربطها بالحبال، وسائق الركشة يبدو متذمرًا، يتوتّر من اهتزازها على السقف، ويقف بين لحظة وأخرى، يتأكّد من أنّها ما زالت مقيّدة جيّدًا، ثم يواصل السير. كنت في صالة بيّتي أتأمل مكتبيّ الوليدة، وقد رصّت عليها الكتب التي بالكاد شغلت نصف رفّها الأول. ستكر المكتبة.. ستكر بكلّ تأكيد، ستمتلئ بقيّة الرفوف، وسأخصّص واحدًا منها لرواياتي التي سأكتبها. كنت أبتسم وأنا أرى خيالي قد ذهب بعيدًا جدًّا.. أصبحت الرواية الملحّة، روايات، ربّما لأنني اقتربت بشدّة من عالم الكتابة، سرقت الروائي اللامع من جوقة معجبيه في معظم الوقت، وانفردت به في مقهى البئر، وسط الإيجاعات الغريبة وصاحب مقهى أنثوي يمكن أن يكون ضحية أو مضحيًّا. وقد قالت الفتاة (س)، صاحبة سراويل الجينز مرّة للروائي، في قصر الجميز، من دون أن تعبأ بي، إنّها تستغرب من صداقته بواحد لا يعرف أحد حتّى الآن من هو ولا كيف ظهر فجأة في عالمهم. لم يرد الروائي، وصفعتها في خيالي.. نعم صفعتها وتمنّيت أن أخبرها عن نظرية اليرقات، وكيف أن روايتها (لحظة حب)، هي في الواقع يرقة ميتة ما كانت ستصبح حشرة كاملة

لولا سواد عينيها. مؤازرة الجمال كما قال (أ. ت). وأتأمل وجه الفتاة  
بتمعن، ولا أعتز على الجمال الكافي، الجمال الذي يقفز بأطوار نمو  
الحشرات. كانت بقايا حب الشباب موجودة بكثرة برغم كثافة  
المساحيق وكريم التقشير الذي دهن على الوجه.

## - 12 -

كنت أقف أمام بيت العمّة (ث)، أتأمل الأطباق اللاقطة التي احتلت مساحة السقف بالكامل وتستند إلى أعمدة كبيرة من الحديد الصديء، وأفكر في ذلك اللغظ الذي أثير حولها، وما مدى ضررها للسكان الذين يؤجّرون أسقفهم لتركيبها. أخبرني المدلّك يوماً، أنها امتياز لا يحصل عليه أحد بسهولة، ولا أعرف إن كانت كذلك فعلاً، واللغظ لم يحسم في شأنها بعد.

كنت قد أخبرت الروائي (أ. ت)، عن المدلّك زوج العمّة والإيحاء الكبير الذي يحمله، كذلك أخبرته عن المشجع حفار القبور (ع. د)، وجنونه الذي جاء بعد تكرّمه من قبل رئيس البلاد. أخبرته بعد أن وثقت به، وتأكدت أنه لن يسرق متي شخصية أو دُ كتابتها، بل العكس كان يمدني بالشخصيات، ويحرّضني باستمرار على محاولة كتابة صاحب مقهى البئر، كلّما جلسنا أنا وهو منفردين في ذلك المقهى. حدث ذلك همساً في قصر الجميز، وقد فرغنا من سماع ثلاثة فصول كاملة من رواية (لحظة حب) للروائية (س)، التي ستصدر قريباً من دار نشر محلية، وبتقديم حذر للغاية، كتبه (أ. ت) مؤازرةً لجمال لم أحس أبداً أنه جمال يشد المؤازرة. قرأت الفتاة بصوت لا يشبه صوتها الذي تتحدث به، أضافت إليه كثيراً من الفراغات والتقطيعات والرنّات الباكية، وكانت تحرك يدها اليمنى التي لا تمسك المخطوط باستمرار، مرّة تضعها على قلبها، مرّة على بطنها أو شعرها المموج

المصبوغ ببني غامق، وقد سقط عنه غطاء الرأس ذو الألوان المتداخلة.. فتاة مندفعة ورواية يريقة.. وجمع يشهق إعجاباً بعد كل سطر، واضطر أن اشهق أيضاً محاكاة للجميع. لم يكن ثمة أحد يشرب شيئاً أو قهوة أو يدخن، ولا حامت أي نادلة من الإثيوبيات حول المكان. وأحيطت الطاولة التي نجلس عليها بسياج من الحديد المدهون بالأبيض لمنع المتطفلين من إيداء القراءة، وذلك بناء على تعليمات الفتاة. استمعت إلى عبارات غير مفهومة أو غير مهضومة بالنسبة لي، ولم أستمع إلى قصة فيها حكاية تشدد.. عبارات مثل: "رصّعي بالجواهر إن كنت سلطانة، أو قيدني بالحبال واجلدي بسياط العذاب، إن كنت عبدة.. يا سلطان السلاطين".. عبارة مثل "في داخل عينيك ترقد الرغبة نائمة.. أيقظها من رقادها.. أيقظها أرجوك.. أريدها مستيقظة وحمقاء، أنا أحب الحمق"، وكدت أضحك بشدة وأنا أرى الفتاة تميل بجسدها كاملاً حتى لامست الأرض، ثم ترفع رأسها قليلاً عن المخطوط.. كانت تبكي وتردد: "إنها لحظة البكاء الأقصى في حياتي، لحظة أن انفجرت قبلة الحزن داخل سعادتي الوردية.. أنظر إلى أشلاء السعادة.. أنظر كيف تتبعثر هنا وهناك.. ولا مسعف أو طبيب". كدت أضحك بينما بقية الجوقة، شهقوا بعنف، ودوّت أياديهم مصفّقة.

ملت إلى الروائي هامساً، والفتاة (س) مشغولة بتلقي التهنئات، من أصدقائها الذين استطاعوا التنفس أخيراً.. بمن فيهم الروائي (أ. ت) نفسه.

حدثته عن المدلّك وحفّار القبور وشخصيات أخرى عرفتُها في حياتي.. قال: انتبه للمدلّك.. صادق، تعرّف إلى ماضيه وتطلّعاته بشكلٍ جدي، وربما تخرج بشيء.

فتحت العمّة (ث) الباب، وبدت لي أصغر سنًا، وترتدي بلوزة فتاة في العشرين، ذات خطوط وألوان وصدر شبه مفتوح، بينما شعرها أسود بصبغة متقنة جدًا. سارت أمامي إلى داخل البيت، وكان صندلها ذا كعب عال لم أرها ترتدي مثله من قبل. لن أفكر في سلوك العمّة الجديد، ولا بدّ تنتهجه إرضاء لزوج معتوه كاد أن يموت في دور لا يستحق الموت من أجله. كان المدلّل موجودًا في صالة البيت، غارقًا وسط سحابة بيضاء من دخان التبغ، يرتدي ملابس الداخلية القطنية من ماركة جيل، ويعبث بجهاز التحكم عن بعد الخاص بالتلفزيون، قافزًا من قناة إلى قناة من دون أن يستقرّ على واحدة، وأرى قراء كف ومغنيين ومتسابقين دراجات وعناق أمريكي وأشياء أخرى تظهر وتختفي تبعًا. كانت ميدالية الحديد المكتوب عليها مسك الختام، تتأرجح على صدره، وصرخ حالمًا لحنّي أمامه:

بارك لي يا عبدالله.. لقد حصلت على دور جديد في مسرحية (موت رجل أبله) التي ستعرض قريبًا على مسرح الشباب الأهلي. أحسست بانزعاج شديد، ليس من أجله بالطبع، ولكن من أجلي. أخاف أن أنشغل بوعكة جديدة من وعكاته أو موت حقيقي هذه المرة ولا أقرأ أو أكتب. هو الآن بالذات محور البداية الجديدة التي سأبدأها، وأقطع فيها شوطًا كبيرًا لأفاجئ بها (أ. ت).. أريد أن أعرف عنه أشياء أجهلها، ثم أشعل خيالي وأرى أي يريقة ستخرج.

- لا تقل لي إنك الأبله الذي سيموت في المسرحية؟
- ليتني كنته يا فرفار.. ليتني.. كنت سأموت أفضل ألف مرّة من ذلك الفاشل الذي يسمي نفسه ممثلًا.

شعرت بارتياح، بل تنهدت بعمق وأنا أجلس بجانبه:

لكن ما هو دورك في المسرحية؟

- في الواقع هو دور كبير بالرغم من أن بعض السطحين قد يظنونه دوراً تافهاً.. أنا أحد الرجلين اللذين سيحملان المحفة التي ينقل فيها الأبله بعد أن يموت.. أليس دوراً مميزاً وفيه حركة؟

لم أدر ماذا أقول حقيقة، وسؤال المدلل معلق بيني وبينه يبحث عن إجابة، عيناه على وجهي مباشرة ويده كعود حطب جاف، تخطب على كتفي وأحس بالردة أكثر من إحساسي بالوجع. لا أستطيع أن أضحك، والموقف يدعو إلى الضحك. أي عامل نظافة من عمال المسرح بلا مخ، يستطيع أن يحمل محفة، أي صعلوك مار بالطريق أثناء العرض، يستطيع أن يحمل محفة، أي واحد من الجمهور ينادى عليه بطريقة "يدك معنا يا أخ". يستطيع أن يمدّ يده في حمل محفة. وتذكرت أنني رأيت مرة فيلين في حديقة الحيوان التي كانت في وسط العاصمة وأزيلت بغرض استثمار أرضها، يحملان الحارس على محفة بخراطوميهما، في استعراض صفق له الجميع.. ولا أدري لماذا شعرت بالخوف فجأة من أن يكون المدلل يخشى في ذلك الدور غير المحسوس مفاجأة ستربكنا كلنا.

لم تقل رأيك يا فرفار.. أظن أن الدور لم يعجبك.

كنت بعيداً عنه، أفكر في الكنز الذي أملكه ولم أستطع استغلاله حتى الآن، ولو تمرّنت قليلاً على الكتابة لاستخرجت منه الدرر. ليتني كنت (أ. ت)، أو ليته كان يملك كنزي، كنت سأقرأ عملاً جليلاً.

- انتظر حتى أشاهد الدور على خشبة المسرح، وبعدها أقول رأيي.

بدا المدلل مبتهجاً، لمس ميدالية الحديد بيده، وألقى على المنفضة بقايا سيجارة مشتعلة من دون أن يطفئها. نادى على عمّتي التي جاءت مستقيمة وبلا انحناء في الظهر، تحمل كوباً من عصير التبلدي الذي تعرف أنني أحبه، وضعته أمامي..

- أخبرني فرفار عن المفاجأة الأخرى.. أخبريه أنت.

جلست العمّة على مقعد مقابل لنا، وقد احمرّ وجهها، وتبدو أصغر حتى من تلك اللحظة التي فتحت فيها الباب، ردّدت:  
سنقضي يومين في دبي، حصل عمك على تذكرتين مجانيتين، وإقامة ليلتين في فندق جيد، سنسافر غداً.

هذه بالذات مفاجأة وأكثر وقعاً من مفاجأة حامل الحفّة. وما تصورت العمّة أو زوجها المدلّك أبداً، خارج حياتهما التي لم يغيراها قط منذ أن تعارفا وارتبطا، شجار روتيني مؤقت وود كبير. المدلّك يحبّ عمتي وهي تحبه، وأنا صائد اليرقات علي أن أصطاد يرقة تنمو إلى حشرة. كان المدلّك يرفع وسادة قطنية يتكئ عليها، يخرج مغلفاً أصفر عليه أختام متعددة، يفضّه ويلوّح بتذكرتين من تذاكر طيران (الاتحاد) الإماراتية، أمام وجهي، وورقة أخرى لا بدّ أنها إقامتهما في الفندق. "على بركة الله يا عم.. على بركة الله يا عمّة" .. أهض لأصافحهما ولا أحسّ بالفضول لمعرفة مصدر تمويل تلك الرحلة الفريدة، كان المدلّك سيفضحه لو أراد. سأؤجل استجوابه، أقصد سؤاله عن طفولته وشبابه، وكلّ ما يمكن أن يوحى في حياته حتى يعود، ولن أخطّ على أوراق الصفراء شيئاً إلا بعد أن أتأكد تماماً أنني لا أكتب تقريراً. وقد راودتني كثيراً فكرة تغيير تلك الأوراق، وأحضرت بالفعل أوراقاً بيضاء، نفرت منها حالما لمستها، لم تكن تملك أي إشعاع يشدني.

حين اقتربت من بيتي، تذكّرت فجأة أنني لم أشاهد المشجّع حفّار القبور (ع. د) منذ فترة، وبالتحديد منذ ذلك اليوم الذي شكاني فيه، وجاء برفقة العمّة وزوجها، جلس على طرف مقعده مهتزّاً، وأخذ صحيفته في ذهول ومضى كضائع في الصحراء يتلفّت بمنة ويسرة.



كان الوقت عصراً، وثمة مباراة بين فريقين متنافسين أحدهما فريق اللبلاب الذي يتولى (ع. د)، رئاسة مشجعيه، تقام في الميدان الرياضي. وأرى عددًا من باعة الترمس والفول المحمص وقصب السكر، منتشرين في المكان. جمهور عريض يحاول الدخول متدفعًا بالأيدي والأكتاف، ويبدو أن هناك أزمة في التذاكر. غيّرت اتجاهي وذهبت إلى الميدان، انحشرت وسط الهرج يدفعني وأدفعه، حتى اقتربت من شبك التذاكر. كان الموظف المختص بالبيع يعرفني جيدًا بحكم جيرتي القديمة للمكان، وترددي عليه في أحيان كثيرة حين كنت أحمل أوراق الصنفاء سعيًا وراء حرق أمني. ولا يبدو أنه سمع بإصابتي وتقاعدي أو لاحظ ساقى الخشبية البديئة لأنه صرخ حالمًا لحنى أمامه..

افسحوا لجناب عبدالله حرفش.. افسحوا يا غوغاء..

وكانت لكلمة جناب التي نطقها بصوته الصارخ، فعل السحر في بلد يحب تلك الكلمة أو بالأحرى يخافها ويرتعد عند سماعها. وجدت الممر المؤدي إلى بوابة الدخول نظيفًا إلا من التراب وبقايا أكياس الترمس وعلب السجائر، وشدت ثوبي أكثر حتى تحتفي ساقى البديئة. لم أشكر موظف التذاكر، ولا أظنه كان يتوقع أن أشكره. وعدم الشكر كان جزءًا من تدريبي الطويل.. لا تشكر أحدًا أبدًا.. دعه يؤدي لك خدمة ويشكر.. كنت أسمع الموظف يصيح من خلفي.. شكرًا جنابك.. شكرًا جزيلًا على التشریف. وللحظة أحسست بالغبن أنني خارج الخدمة المميزة، وأركض خلف الروائيين ومتعاطي الثقافة الذين كانوا حتى عهد قريب مجرد ملفّات ركيكة، تعج بها إدارتنا، وضيوفًا غير كرام يركون على أيديهم وأرجلهم استجداءً حين يؤخذون إلى دهاليزنا المظلمة. وكتابتني ما تزال يرقات حتى الآن لا أعرف هل ستطور أم لا؟ لن يطول الوقت حتى يعرف موظف

التذاكر، وذلك الجمهور الذي سحرته كلمة جنابك، وكنس لي ممر الدخول، أنني مجرد نكرة خارج الخدمة وأعامل بعد ذلك كما يعاملني المسيحي (ر. م) صاحب المكتبة أو الخياط (خ. ر).. أنني فرفار ذو الساق الخشبية.

كانت المباراة قد بدأت حامية، والفوضى من بدايتها حامية كذلك، واتجهت مباشرة إلى حيث اعتاد المشجع (ع. د) على الجلوس، إنه ركن في مدرج الشعب، وضع عليه مقعد من الخيزران القوي، ربطه بسلسلة من الحديد إلى وتد مقوّس من الحديد أيضاً، ثبته بنفسه على إسمنت المدرّج، ركن يعرفه الجميع، ولا يجلس عليه أحد مهما كثر الزحام حتى لو لم يأت المشجع، وأعرف أن له عدة أركان ماثلة في كلّ ميدان من ميادين العاصمة. كان الركن خالياً ولا أثر للمشجع.

تلفّئت باحثاً عنه وسط الجمهور العريض، لعله قد غير موقعه أو لعله يتمشّى من شدة التوتر، ولكن لا أثر. لم يكن المشجع يحظى باهتمامي في الماضي، وفي كثير من الأحيان كنت أراه ولا أحييه حتى، وأترك له مهمة أن يحييني. الوضع مختلف الآن والمشجع أحد أعمدة كتابتي التي سأكتبها ويجب أن أتقصّى حياته أيضاً مثلما سأقصّى حياة المدلّك زوج العمّة.. شيء من الواقع.. أشياء من الخيال، وتأثي الكتابة الجيدة. وفي تصفّحي للكتب التي اشتريتها مؤخراً من أعلاف تمهيداً لقراءتها كاملة، وشكّلت النواة الأولى لمكتبتي، أحسست بوجود واقع ووجود خيال يسير مع الواقع جنباً إلى جنب.. إنّها صبغة الكتابة.. أي كتابة وليس كتابة (أ. ت) وحده.

كنت كما يبدو قد حجبت الرؤية عن عدد من المشجعين المتعصبين كانوا يجلسون قريين من ركن (ع. د) الخالي، صاحوا في وجهي أن أبتعد.. وقلت في صوت حاولت أن أعطي به على ضحيجهم:

- أبحث عن الرئيس لو سمحتم.  
كان لقب الرئيس هو ما يعرف به (ع. د).. وسط مجتمع الكرة،  
وأيضاً وسط مجتمع البكاء حين يدفنون ميتاً قام بحفر قبره.  
الرئيس؟

صاح أحدهم..  
الرئيس في القصر الأبيض.. اسأل عنه هناك.. أبعد من فضلك..  
يا.. يا سلوكة.. أضعت الهدف يا ماسح الأحذية.. يا واطي..  
كان القصر الأبيض هو مستشفى المجانين الأكبر في العاصمة،  
حيث الضياع الحقيقي، إذن فقد ضاع مني المشجع حفار القبور مؤقتاً.  
لن أحزن وسأفكر كيف أكتبه.

## - 13 -

(نشأ المدلّك في بيئة فقيرة في مدينة (سنكة) في شرق البلاد، كان أبوه بائع خضراوات متجولاً يستخدم صوته الأجلش في المناداة على الخضراوات، وكانت أمه تساعد في مصروف البيت بتخمير اللبن وبيعه لـجاراتها. لم يكن المدلّك يحبّ أباه. يعتبره ظالماً، وشاهده عدّة مرّات أثناء البيع، يمسك بأيدي النساء أو يلمس صدورهن. كان يخبر أمه وتغضب، ويأتي أبوه ليضربه. كان يحبّ كرة القدم منذ صغره، يهرب من البيت ليلعبها مع أبناء الجيران وشكل معهم فريقاً سموه فريق (الجرجير) كانوا ينافسون به فرق الأحياء الأخرى ويصنعون كاسات من الورق الملون، يوزّعونها للفريق المنتصر).

استمرت في القراءة أمام الروائي (أ. ت)، في مقهى البئر، راصداً حياة المدلّك كما حكاه لي، بعد أن عاد مبهوراً برفقة العمّة (ث)، بعد يومين من المتعة الاستثنائية الجديدة في دبي، وذهبت لزيارتها. كان يرتدي ثياباً رياضية جديدة كتب عليها بخط أحمر متعرج (طيران الاتحاد) ويجوار الكتابة شعار تلك الشركة. على صدره ثلاث ميداليات جديدة من حديد مشغول بفن على شكل قلوب حمراء، كتب عليها: مسك الختام، وواحدة رابعة يهزّها في يده لم أستطع مشاهدة كتابتها وحمّنت أن عليها (موت رجل أبله)، المسرحية التي ستعرض قريباً على مسرح الشباب الأهلي، ويؤدّي فيها دور حامل للمحفّة التي يرقد عليها الأبله الميت. وكانت العمّة في أهى

زيننة، ترتدي شعار طيران الاتحاد أيضاً ولكن في شكل بلوزة وتنورة واسعتين، وتضع كحلاً ثقيلاً على عينيها. شربت معهما شايًا شفافاً من ماركة لبيتون، أراه لأول مرة في بيتهما، وتسلمت هديتي التي أحضرها، من يد العمة وكانت قميصاً أصفر قصير الكمين وله أزرار لامعة. وثمة عبارة مطرزة بخيوط زرقاء "فندق غلوم إخلاصي.. أنت في بيتك".

كان المدلّك يحكي بلا توقف، حكى عن الشوارع النظيفة الواسعة والمتنزهات الأنيقة بأشجار لا يعرف أنواعها، السيارات الحديثة السريعة التي تخطف الأبصار، والأبراج في شارع الشيخ زايد التي أطارت عقله، وفكر أن الجن هو الذي بناها وليس البشر. وحين بدأ يتحدث عن الأسواق الممتلئة بكل شيء حتى السيقان التعويضية التي لا تشبه ساق الخشب عندي، سكت برهة، ثم قال مخاطباً العمة:

- حدثني أنت عن الأسواق من فضلك.. النساء يفهمن في بعثرة النقود أكثر من الرجال.

لم تقل العمة كلاماً كثيراً. كانت تبتسم أو تضحك أو تقرص نفسها بأظفارها لتتأكد أنها لم تكن تحلم. وكانت تنبعث من جسدها رائحة عطر نفاذ بينما قارورة مضلعة من الزجاج قريبة من يدها. استمعت إلى المدلّك في صبر، واستطعت بعد أكثر من ساعة أن أدخل إلى موضوعي الذي أعتبره ملجأً للغاية، حدثته أولاً عن معنى الرواية، وأنها قصة طويلة تكتب في صبر، ولا تنجح إلا إذا كان فيها واقع وخيال. قال: طبعاً أعرفها.. قرأت روايات المغامرات في شبابي واستمتعت بروايات أرسين لويين ومونت كريستو.. هل نسيت أنني ممثل يقرأ المسرحيات قبل أن يؤدي فيها دوره؟.. عيب يا عبدالله.. عيب يا فرفار.

كنت في الحقيقة قد نسيت مسألة تمثيله، وأنه ظل منذ شبابه المبكر، يطارد كتاب الدراما والمخرجين المسرحيين ليوطفوه في أي دور، ولا بدّ يعرف معنى الرواية وربما أكثر مني قبل أن أثنقّف مؤخرًا. اعتذرت له وقبل اعتذاري ويده تمتد بين حين وآخر، تحرك ميدالياته على الصدر أو تخبط على كتفي وأحس بالرعدة. أخبرته أنني بصدد كتابة رواية وسيدخل فيها بلا شك، ويصبح مشهورًا أكثر، تنهافت عليه المسرحيات. لم يبد مستغربًا من كوني ساكتب رواية كما كنت أتوقع، قال في صوت لم يكن خشناً كصوته المعتاد لكنّه مستفز، وتغاضيت عن استفزازه في سبيل مشروعي:

طبعًا يا فرفار.. من حقك أن تفعل ما تشاء.. اكتبني واكتب عميتك الجميلة هذه واكتب تلك البيئة الوسخة التي كنت تعمل فيها.. أنا موافق... أعطني ورقة أكتب لك فيها موافقتي... أحضري ورقة وقلمًا لو سمحت.. هيا.

كان يصيح في العمّة، ولم تكن ثمة حاجة لأن تقوم من جلستها المصدومة، فقد أخرجت ورقة من ورقي الأصفر، وقلمي الباركر، وسلّمتهما له حتى يكتب ما يريد كتابته.

كانت رواية (لحظة حب)، أو يرقة حب كما أسميتها في سرّي ولا أجهر بتلك التسمية، للكاتبة الجديدة (س)، قد صدرت في تلك الأيام عن الدار المحليّة الفقيرة بتمويل ذاتي من الكاتبة، وأقيم لها حفل توقيع في صالة متواضعة اسمها صالة (رشا)، كانت مرصودة دائماً لدينا باعتبارها تقيم أنشطة فيها شيء من الخلل. ولم يكن ذلك من اختصاصي، فقد كنت بعيدًا عن رصد الثقافة أيام عملي إلا نادرًا، لكنني أعرف. جلست (س) على طاولة ممتلئة بالنسخ ورأيت زحامًا غريبًا عليها ومن مختلف الأعمار. كلّ يشترى نسخته ويحظى بتوقيع

الكاتبة وصورة بجانبها يلتقطها الشاب الذي كان يحمل الكتابين الضخم والهزيل، في قصر الجميز ولم أهتم بمعرفة اسمه وكانت (س) بلا سروال جينز باهت اللون كما اعتدت على رؤيتها دائماً، ترتدي تنورة خضراء، فوقها قميص قطني أبيض، وتضع على رأسها طرحة سوداء مشبوكة بدبابيس لا تسمح لها بالسقوط المتكرر لكشف الشعر. هيئة إعلامية بلا شك.. واحتشام مؤقت من أجل الصحافة التي تنتقل حفل التوقيع.. تلك الفتاة تستحق الكثير من الاهتمام من زملائي الذين ما يزالون في الخدمة بلا شك.

ذلك اليوم أحسست بالغيرة، غيرة حقيقية وأنا أرى الرواية التي قال (أ. ت) إنها يرفقة، تحولت إلى حشرة كاملة مؤازرةً للجمال، تسوق أمامي هكذا، ولم أكتب حتى الآن سوى تقرير التفاحة الأمني الذي كشف أمري. قرأت كتابين من كتبي التي أحضرها من أعلاف، وأحسست أنني أستطيع أن أكتب مثلها، لكن برغم ذلك لم أكتب. استمعت إلى كلمة (أ. ت) التي ألقاها في الاحتفال بحذر أيضاً، متحدثاً عن وظيفة الكتابة وتشجيعه للكاتبة (س)، من دون أن يحدد روايتها.. إنها تقريباً نفس الكلمة التي كتبها تقديمًا للكتاب. استمعت إليه وتمزقت، تسلّمتُ نسختي الموقعة في عجل، وخرجت من هناك رأساً إلى ورقي الأصفر. نزعنت ساقي البديئة من جسدي، خلعت ملايسي كلّها، وجلست عارياً أستعيد قصة المدلّك زوج العمة وأكتب. الطقس العاري الذي ربما يمنحني يرقة تنمو.. لا أدري.

انتهيت من القراءة منهكاً وأتصبّب عرقاً، ورفعت بصري إلى الروائي أحاول أن أتقصي تعابيره لأقرأ إعجاباً أو دماً في حق بدائي، خاصة أنه لم يقاطعني هذه المرة. جعلني أمضي في القراءة حتى النهاية

ويبدو أنه كان يستمع. كان مقهى البئر شبه خال في هذه الساعة من النهار، صاحبه الضحية أو المضحّي، مشغول بالعبث في خاتمه الضخم ذي الفاروصة الخضراء، يخرجها ويدخله في إصبعه بلا توقّف وعلى عينيه نظرة ثعبان. النادل الوحيد في المقهى مسترخ على مقعد ممزّق من الحبال في شبه رقدة، وثمة امرأة زنجية في أوائل الثلاثينات من العمر، تتأمل عددًا من الصور، أخرجتها من حقيبتها القماشية، وتبكي في صمت.

- ها.. ما رأيك أستاذي.. يرقه ميتة أيضًا؟.

قلت وقد مرّت عدة دقائق بعد أن انتهيت من القراءة ولم يقل الروائي شيئاً بعد، وخلته يفكّر في المرأة الزنجية أكثر من تفكيره في بدايتي التي قرأها، لا بدّ أن المرأة الباكية أمام الصور، توحى إليه بشيء. قال:

طبعاً يرقه يا فرفار.. لكنّها لم تمت بعد.

خفقت قلبي بشدة:

ماذا تعني؟

التزمت بالواقع حرفياً في حكاية المدلّك، نفس حكايته التي حكاها لك، ولم تضيف إليها شيئاً من الخيال. نشأ في بيئة فقيرة، ولم تحك عن تلك البيئة الفقيرة التي فيها قطعاً ملابس ومشاعر ممزّقة، فيها غيرة وصراع وثقافت وأشياء أخرى. الأم تباع اللبن الرائب ولم تكتب شيئاً عن مصدر اللبن في ذلك البيت الفقير، هل كانت تسرقه أم تحلبه من عنزة جائعة؟ المدلّك يكره أباه لأنه ظالم.. أي أب ظالم يا أخي في نظر أبنائه، حتى أبي وأبيك. أين ردود أفعال الكره الذي يكتب في رواية.. أن يمزق قميص والده المفضل مثلاً.. أن يتلف شيئاً من حضراواته، أن يتآمر مع الصبية لوضع



حجر أمام حماره الذي يجزّ عربة الخضراوات.. أنت لم تذكر أن ثمة حماراً يجزّ عربة الخضراوات.. لا أظنها عربة تويوتا أو مرسيدس، أليس كذلك؟.. طبخة نيئة غرفتها بسرعة، لو عدت إلى بيتك وتركتها أكثر على النار.. ربما تنضج.. ربما لا تموت اليرقة.

كلام كبير جداً، أعجبتني وأغاظني في نفس الوقت. وأستغرب بشدة أن أصبح في زمن قليل، محوراً من محاور ذلك الكاتب الذي يعتبره الكثيرون نجماً متغطرساً، تصعب مصادقته، وكان ذلك انطباعي أيضاً حين رأيته أول مرة في قصر الجميز يحكي عن طقوس كتابته الغريبة، وبدا لي وجهه، وجه نافقة ولا أعرف لماذا وجه نافقة بالتحديد؟ صحيح أنني استلفت طقوسه نفسه وحاولت استخدامها، لكنّ الغريب في الأمر، أنني قريب منه جداً.. وأولئك الذين يعرفونه من قبلي ويجالسونه باستمرار، لماذا لم يقتربوا منه كما اقتربت؟ سأعود إلى النار مرة أخرى.. طقس العري نفسه في غرفة ليس فيها ذرة هواء، أعدّل اليرقة حتى لا تموت، سأجعل من طفولة المدلّك في مدينة سنكة، طفولة أخرى تبتعد قليلاً عن طفولته الحقيقية، وأرى ما ينتجه خيالي الذي بدا يتّسع بلا شك، وقد قرأت عدداً من الكتب لا بأس به بالنسبة لمبتدئ.. قرأت (أبناء سعد المختالون) أيضاً، تلك التي كتبها في السجن، وأعجبتني جداً، لكنّ ليس مثل رواية إيفا. هذه كانت سهلة وتحكي عن مجموعة من عمال البناء الآسيويين الذين كثرت أعدادهم في البلاد مؤخراً، وهم يتخبطون وسط السكان المحليين في حي فقير اسمه حي (سعد)، يغازلون نساءه ويصطادون قططه وكلابه التي يقول سكان الحي إنهم يطبخونها ويزيّنون بها مواعدهم. كانت الرواية ممتلئة بالمفارقات الساحرة ومشوّقة.

كان الروائي كأنه قد قرأ أفكار المستغربة من اهتمامه بي،  
قال فجأة:

لا تستغرب من اهتمامي بك يا فرفار.. أنا في الواقع أعجبت  
بنزعتك إلى التغيير من تلك الحياة التي كنت تعيشها.. وأساعدك  
حتى لا تعود كاتب تقارير من جديد. إنه جزء من رسالي في  
الحياة التي لن أتخلي عنها حتى أموت.

- وهل تعتقد أنني سأنجح في كتابة المدلّك بصورة جيّدة في النهاية؟
- طبعاً ستنجح.. المدلّك وحفار القبور.. وعشرات الحكايات  
والتجارب التي توجد في ذهنك وتحتاج إلى الكثير حتى تخرج..  
دعني أحدثك عن هذه المرأة التي تبكي أمام الصور.. من خيالي  
طبعاً لأنني لا أعرف عنها شيئاً.

كانت المرأة الزنجية الآن قد اختصّت إحدى الصور باهتمام  
أكثر، وضعتها أمامها على الطاولة بعد أن نظّفتها جيّداً بحزمة من  
مناديل الورق، بينما أعادت الصور الأخرى إلى حقيبة القماش.  
أخرجت من نفس الحقيبة إصبع شفاه أحمر، وقلماً لتزيين الحواجب،  
ومشطاً أسود بعض أسنانه مكسورة، وفيه بقايا شعر. مسحت  
دموعها بمنديل أحمر متسخ، وبدأت تتزين وتمشط شعرها مستخدمة  
كلّ ما أخرجته من الحقيبة. كنّا نراقبها جلسة النادل الوحيد ما  
زال مسترخياً على مقعد الخبال. صاحب المقهى توقف عن العبث  
بالخاتم، نهض من جلسته وخرج إلى الطريق والروائي يتحدث كأنه  
يكتب رواية، وأنا أصاب بالدهشة لبراعته، وبإحباط شديد من  
إخفاقي.. وبعد مدّة ليست بالقصيرة في درب المثقفين.. ما زلت  
فرفار.. صائد اليرقات:

"أعرف أنك لم تمت.

يخبرني قلبي الذي تعرف صدقه جيّدًا وجربته في مرّات كثيرة، أنك لم تمت. صحيح أنك تمردت، وأنك تركت مدينة صرخت حين رأيته لأول مرّة ونحن نهبط من طائرة الفوكرز الصغيرة التي أفلتت من الجنوب: هذه مدينتي.. هذه مدينتي، لتعود مرّة أخرى استوائيًا حارًّا ومشردًا في غابات لا تستطيع أن تتذكّر فيها حبنا، لكنك بقيت حيًّا. وأجلس الآن في مقهى صامت بلا روح، أمامي نادل مرهق ينام جالسًا على مقعده، رجل مسن لا بدّ أنّه صاحب المقهى، يبدو كامرأة مسنة، غريبان أحدهما بساق خشبية، يتحدثان في همس ولا بدّ كانا زميلي دراسة أو سجن في الماضي، التقيا مصادفة ويستعيدان بعض الذكريات. أمامي صورتك الأخيرة التي التقطتها لك مصور جوال في حديقة كنّا نتنزه فيها معًا. هي صورة لكنّ لا تبدو في عيني كذلك.. بل حقيقتك مجسّدة وأترّين لها الآن. أضع كحلي وأحمر شفاهي، أرسم حاجبيّ وأمشط شعري وأعرف أنّك ستنهض من المائدة وتعانقني. بالأمس زارني عدد من أصدقائك القدامى، أولئك الذين كنت تعمل معهم في فرقة المشاة. العسكريون الصارمون الخشنون حين يدخلون بيتي بملابس مدنية وعواطف تنتمي لعواطف البشر، كنت تعمل معهم وكنت صارمًا عندهم، وهشًّا رقيقًا عندي.. سأنتظرك.. عد أرجوك.. إنّهض من المائدة.. حيي الغريبين المتهمسين بذكرياتهما، وأيقظ النادل المسترخي حتى يأتيك بالشاي المخلوط بخمس ملاعق من السكر، الشاي الذي تحبه دائمًا هكذا".

بداية قويّة يا (أ. ت).. قويّة بلا شك. الخيال الذي ينتشل حقيقة صغيرة، ويحوّلها إلى نص ممتلئ، امرأة باكية تترّين أمام صورة في مقهى متّسخ، تصبح حبيبة تنتظر حبيبًا تركها وفرّ إلى الجنوب متمردًا على النظم ولم تياس من انتظاره. الفرق بيننا شاسع جدًّا.. أنت محترف وأنا

مبتدئ، صائد الحشرات الكاملة وصائد يرقاقها.. لكنني لن أنهزم أبداً..  
سأمضي متخبطاً فيما بدأت حتى أصبح مثلك يا (أ. ت).. لا أريد أن  
أسألك عن بداياتك، حين هجرت تدريس الرياضيات في المدارس  
المتوسطة.. لا بدّ أنها كانت أقوى من بداياتي لأنك هجرت التدريس  
من أجلها، بعكسي أنا الذي هجرته مهنته، وعرف مصادفة أن  
أشخاصاً لا علاقة لهم بالكتابة أصبحوا كتّاباً.. ثم ألحّت عليه الفكرة  
الجنونة أن يصبح مثلهم.

(موت رجل أبله).

عنوان المسرحية الثانية التي أحضرها الآن بإلحاح من المدلّك الذي جاء إلى بيتي ثلاث مرّات خلال أسبوع واحد، ليعثر قراءتي وكتابتي ويذكرني بموعد المسرحية التي ستعرض على مسرح الشباب الأهلي، ويمثّل فيها دوراً هو في الحقيقة ليس دوراً وإنما "تكملة عدد" كما يقولون. لم يكن في الحقيقة أي داع لإلحاح المدلّك بهذه الصورة، وكنت أنوي حضور المسرحية طواعية، فقد غدا مشروعني الملحّ. أعدت كتابة بدايتي عنه مرّة أخرى وأحسست بارتياح كبير.. هذه بلا شك مستعجب (أ. ت) حين أعرضها عليه في مقهى البئر.. فيها خيال.. أنا أكيد من ذلك، اخترعت فيها أشياء لم يحكها المدلّك، إضافة إلى لغة حاولت أن أقلد بها لغة (أ. ت).

الزحام ليس كثيفاً أمام باب المسرح، ولا يشبه زحام الميدان الرياضي قرب بيتي. لا تدافع ولا صراخ ولا باعة ترمس أو مرطبات منتشرون، ولكن جمهور متأنق يقف في دوره أمام شبّاك التذاكر، يشعري تذاكره في صمت ويدخل. والمدلّك ينتظرني عند الباب الجانبي، حيث يدخل الصفوة. ملابسه عادية جداً: بنطلون أسود وقميص أبيض، ولم تكن ثمة ميدالية تتدلى من عنقه. خامتني فكرة أن أفتش جيوبه بحثاً عن سم أو حبوب مخدرة، لكن تذكرت أن دوره هذه المرّة بعيدٌ عن الإغماء. كانت العمة (ث) هناك أيضاً، أنيقة ومبتسمة

ومستقيمة في وقفاتها بلا انحناء في الظهر، ترتدي ملابس سيّدة وقور، وتضع عطرها النفاذ الذي أحضرته من دبي. أرادت أن تجلس بجانبني أثناء عرض المسرحية، واعتذرت لها برفق، فقد كنت على موعد مع (أ.ت)، وكان جالساً في مقعده، يحدّق نحو الستار المغلق للمسرح في قلق. شاهدت الرواية الجديدة (س)، وقد عادت إلى سرّوال الجينز باهت اللون وطريحة الحرير التي تنزلق من رأسها كاشفة الشعر. لم تكن من توابع الصفوة هذه المرّة، ولا جلست قرب الروائي، كانت على بعد ستة مقاعد من مكانه، وبجوارها شاب منكوش الشعر، يحمل دفترًا كبيرًا ويضع قلمًا أزرق على أذنه. كان يشبه الصحفيين الذين يتسكّعون حول الثقافة بلا إمكانيات. لقد نجحت (س) بلا شك، نجحت بريقة كانت ستظل بريقة لو كتبتها أنا عبدالله فرفار أو غيري من المهايل الذين يملأون المقاهي بالثرثرة ودخان السجائر. — "مؤازرة الجمال" .. ولا كانت جميلة أو تقترب من الجمال في نظري، وقد تنكرت للمؤازرة كما يبدو، وتجلس الآن بعيدة، والشاب يهمس في أذنها، وأشهد صدرها يعلو وينخفض.. تتنفس لا شك بإطرائه.

مضى العرض بطيئاً مملاً، وأعرف أن العروض التي يقدمها مسرح الشباب الأهلي، دائماً ما تحفل بمثل ذلك الملل. يسمّونه تجريباً وأسميه تخريباً، ولا تستطيع إدارتنا الأمنية مهما اجتهدت، أن تمسك على مخرجي ذلك المسرح دليلاً ذا جدوى. كانوا يسبّون الوطن، ويزدرون التراب، ويتصعلكون ويخرجون ألسنتهم ولا يفهم أحد. وقد كان الأبله المفترض أن يموت في نهاية العرض ويحمله المدلّك بمساعدة شخص آخر، يرتدي ملابس رثة، يرقص أحياناً، يغني أحياناً، يقرأ الشعر في صوت باك، يتعثر بالنساء اللاتي يمشين أمامه، يصطدم بأكتاف الرجال.

ووقف مرّة أمام شجرة ذابلة، مكتوب عليها: الحرية.. وبكى.. أمام  
دكان يبيع مواد البناء، وضحك. سقط في حفرة، وضرب رأسه في  
عامود من الخشب، وفي النهاية سأله رجل أنيق كان يحمل سلاحاً  
شهره في وجهه.. هل أنت الصرصور الذي يسكن بالوعتي؟.. قال  
نعم، فأطلق عليه الرجل الرصاص، سقط على الأرض وذهب الرجل في  
خطى ثابتة، هنا دخل المدلّك ورفيقه يحملان محفّة ممزقة، وضعاه عليها  
وانصرفا، ووقف جمهور المشاهدين وهم يصفقون، متوقعين أن يغلق  
الستار معلناً انتهاء المسرحية، لكنّ الستار لم يغلق. عاد المدلّك إلى  
المسرح مرّة أخرى، كان يجرّ المحفّة على الأرض وهي تحوي الممثل  
الذي أدى دور الأبله. وقف قريباً من الحافة والممثل مسحى أمامه  
صامتاً ولا بدّ مندهشاً، وأخذ يصرخ بصوت لم أكن أعرف أبداً أنه  
يملكه وهو يشير تارة إلى المحفّة وتارة إلى الجمهور.

- أرقد بسلام يا بني، أرقد بسلام. دمك لن يضيع هدراً أبداً في بلد  
العدل والحرية والديمقراطية، لن يضيع وآلاف العيون تحرس أمن  
الوطن، آلاف الرجال الأفذاذ يحمون التراب، يصدّون أولئك  
الخونة الذين يودّون رؤية الوطن أشلاء.. تلك الأحزاب الخبيثة،  
تلك القاذورات، أرقد يا شهيد.. أرقد بسلام.. كلنا فداؤك..  
كلنا فداء الوطن.. عاش قادتنا الأوفياء.. تسقط الشيوعية..  
تسقط الإمبريالية.. تسقط أمريكا.

وقفت مذعوراً وأحس بشيء من المغص في أسفل بطني. إذن فقد  
كانت تلك هي المفاجأة التي أحسست أنها ستحدث وكذّبت  
إحساسي، لا يمكن أن يكون كلّ ذلك الإلحاح في دعوتي، لأشاهد  
رجلاً يدخل ويخرج بلا دور.. كان وراءه ما وراءه. سمعت هتافاً  
شديداً يدوي في الصالة.. الله أكبر.. الله أكبر.. يسقط الخونة..

تسقط الشيوعية.. تسقط الإمبريالية.. تسقط أمريكا، وتدافع عدد كبير من الحاضرين حتى المسرح، حملوا المدللك على أكتافهم، خرجوا به من الباب الرئيسي للمسرح وهتافهم يبتعد شيئاً فشيئاً.. والستار ما زال مفتوحاً، وقد دخل عدد كبير من مثلي المسرحية، ومخرجها إلى المسرح من خلف الكواليس، يستطلعون الأمر بينما نهض الممثل البطل من مخفّته وأخذ يتابع الموقف في ذهول. كانت العمة تجلس على مقعدها وسط المخرج، كتمثال من الشمع، الروائي (أ. ت)، خرج مسرعاً من دون أن يودعني، وبقية الصفوة الذين شاركونا مقاعد الصفوف الأولى، أغلبهم هرول مبتعداً وقد اكتست وجوههم بخوف حقيقي. لم أكن غاضباً أبداً من فوزى المدللك التي أحدثها، على العكس اغتبطت جداً، لأن المدللك أولاً كان شخصية وطنية في نظري تلك اللحظة، وكنت أظنه طيلة معرفتي به شخصية بلا قيمة، من تلك الشخصيات التي يطلق عليها في تقاريرنا الأمنية "بلا ملابس"، وتركز ملفاتها في خزانة بعيدة عن النباش اليومي. ثانياً لأن شخصيتي التي أمتلكها، تمنحني في كل يوم مفاجأة جديدة.. مفاجأة تعجل بالكتابة الناضجة. شخصية كنز كما أقول دائماً.

لاحقاً عرفنا أن المدللك، كان قد عطّل كهرباء الستار حتى لا ينغلق في نهاية المسرحية، صرخ في الأبله الممثل أن يظل ساكناً على مخفّته لا يغادرها، وجره بسرعة غريبة إلى داخل المسرح مرة أخرى. اكتشفنا أن زوج العمة قد نسف مسرحية (موت رجل أبله) في يوم افتتاحها نسفاً تاماً. كانت قائمة على نقد السلطة، الشعب الأبله الذي يتخبط في الشوارع، يقوم ويقع، يرقص ويغني لأن لا شيء آخر يفعله غير الرقص والغناء. يبكي أمام حرية ميتة، ويضحك أمام محل أدوات البناء الذي يرمز إلى التعمير غير المتاح لأمثاله.. ثم يضرب برصاص



سلطوي بارد، وتأتي المساعدة الخارجية، لتجده ميتاً يحمل على محفة لدفنه. كان المخرج (ع. ج)، أحد أهم مخرجي مسرح الشباب التجريبي، والذي يملك ملفاً ضخماً في إدارتنا بوصفه يساريًا مخربًا، يشد شعره من الغيظ، وقد شاهد نصّه الانتقادي، يتحول في النهاية إلى مظاهرة كبرى لتأييد السلطة.

أخذت العمّة إلى بيتي مؤقّتاً وكانت ما تزال مصدومة. صدمة دبي التي جاءت تحملها حين عادت من هناك، تلاشت فجأة، لتحلّ محلها صدمة زوجها المحمول على الأكتاف في مظاهرة ليلية كنت أتابعها على هاتفي الجوال، وأنا أتصل بين لحظة وأخرى ببعض زملائي القدامى في الأمن الوطني الذين كانوا يرصدون المظاهرة منعاً من تسلّل عناصر تخريبية إليها، كما يحدث دائماً في مثل تلك الحالات.

مع الخيوط الأولى للفجر جاء المدلّك إلى بيتي باحثاً عن زوجته. كان يترنّج من التعب، حلقة يابس وعنقه بلا ميداليات، ويسأل عن عشاء وسجّارة، وغفا على مقعده من دون أن يأكل أو يدخن. العمّة أيضاً كانت غافية على مقعد، وكنت في قمة التوهج والاستيقاظ. ألغيت بدايتي المعدّلة التي كتبتها، وجلست بلا أي طقس محدد، أكتب بداية جديدة. كانت بدايتي من حيث يجب أن تنتهي الحكاية.. من صوت المدلّك على خشبة المسرح، حين ألغى بكلّ بساطة فكرة مسرحية ربما استغرقت زمناً طويلاً عند من كتبها وأخرجها. حين يستيقظ سياسائي عن رأبي في الدور الذي أدّاه، وسأكون أميناً معه، أتفهّ دور حامل المحفّة، وأمجّد الدور الآخر. ليس دور المخبون الذي ألقي خطبة تحولت إلى مظاهرة، ولكن دور صاحب الكنز الذي سيغيّر كتابتي.

## - 15 -

لم يكن الروائي (أ. ت) موجودًا في مقهى البئر، حيث اعتدت أن ألتقيه باكرًا، نجلس بانفراد نتحدث عن يرقائي وحشراته الكاملة، قبل أن أتوجه معه، أو يتوجه وحده للقاء أصدقائه الآخرين في قصر الجميز. كان هاتفه المحمول مغلقًا طوال يوم أمس، وفكرت أنه مريض ربّما، أو بدأ كتابة رواية جديدة من تلك الروايات التي يتشردّ فيها أو ينغلق في حجرته، أو يدخل السجن، أو يستأجر بيوت الزار الموحلة في سبيل إنجازها. لعله يكتب لاعب كرة القدم الفقير الذي سيصبح وزيرًا كما نوه من قبل، أو لعل بدايته التي ارتجلها أمامي عن المرأة الزنجية الباكية في مقهى البئر، أعجبته وأراد إكمالها في مشروع جديد، وأعرف أنه يغدو مجنونًا حين يكتب، وربما ركب طائرة عسكرية إلى مواقع الحرب في الجنوب من أجل تلك الرواية، عرفت ذلك منه ومن مراقبتي له أثناء ارتجاله لفقرة المرأة الباكية أمامي في ذلك اليوم.. كانت عيناه تشعان بالجنون.

ظهر أمس وحين استيقظ المدلّك من غفوته في بيتي، ودعك عينيه، وشاهد أكثر من عشر صفحات صفراء ممثلة بالكتابة مرتّبة على الطاولة، ضحك.. عرف أنه أوحى لي بشيء. لم يمدّ يده إلى أي ورقة، لكنّه أخرج من جيبه ميدالياته الأربع، ثلاثًا منها هي مسك الختام، والرابعة لم يكن مكتوبٌ عليها.. "موت رجل أبله"، ولكن "حياة رجل شهيد". إذن كان المدلّك قد خطّط لتلك المظاهرة الصاخبة منذ فترة،

سافر بتخطيطه إلى دبي، وكتبه في ميدالية مشغولة بفن. علق  
ميدالياته الأربع على صدره، والتفت إليّ.. كانت عيناه ترقان بشدة  
قضيت على الخونة يا فرفار.. أليس كذلك؟  
لكِنَّك قضيت على مستقبلك في التمثيل أيضاً.. لن يوظفك أحد  
مرة أخرى في مسرحية.  
من قال لك ذلك؟

تهيج بغتة، اهتزت ميدالياته على الصدر بعنف..  
من قال لك ذلك؟.. أمس كانت الدولة كلها تحملي على  
الأكتاف، وعرض علي مدير المبيعات في شركة (ناني) للمشروبات  
الغازية أن أصور إعلاناً لمشروباته.. لقد وصلت إلى التلفزيون  
أخيراً.. وصلت إلى التلفزيون.. أهضي يا امرأة واسمعي الأخبار،  
أهضي.

كان يهز العمّة المكوّمة على مقعدها وتصدر شخيراً متقطعاً،  
وضرب بيده الأخرى على الطاولة فاهتزت الأوراق التي كتبتها عنه.  
كان ما شاهدته بعد ذلك غريباً، نهضت العمّة بخفة لا تشبه ثقل العمر  
ولا جهود أمس، عانقته بقوة، وثمّاسكا وهما يخرجان من بيتي.. سمعت  
عمّي تتحدث بصوت ناعم وكانت تقول:

سنذهب إلى دبي مرة أخرى. أليس كذلك؟

كان مقهى البئر مختلفاً في ذلك اليوم. كان بلا صحراويين ولا  
أبناء ريف من الذين يستريحون فيه حين يغزون المدينة. ورأيت المئات  
من أبناء الجنوب المقيمين في العاصمة، يشغلون أغلب موائده أو كلّها  
تقريباً، يرتدون ثياباً إفريقية مزركشة بالأحمر والأصفر والبنفسجي،  
ويحملون أعلاماً لا تشبه علم البلاد، وقد تصدرت صورة كبيرة لواحد  
من أشهر زعمائهم، والذي مات منذ فترة في حادث مأساوي، واجهة

المقهى، يشاهدها كلّ من يدخل. كان يرتدي ثيابهم الإفريقية المزركشة  
نفسها، بينما على رأسه طاقيّة من السعف الملون في وسطها ريشة  
ديك.

سألت صاحب المقهى عن ذلك التجمّع المريب، وكان يتنقّل بخفّة  
بين الموائد، يساعد نادله الوحيد، وثوبه مرفوع حتى مستوى السُرّة..  
ردّ بصوته الأثوي العجوز:

- يحيون ذكرى الزعيم السنوية.. أين صاحبك إبليس؟  
لا أدري لماذا أطلق لقب إبليس على الروائي الذي خلّته مرّة ناقة،  
ولم يخطر على بالي أبداً أنه يحمل وجه إبليس، ولا كان عندي تصور  
عن وجه إبليس.. كيف يبدو؟ تغاضيت عن ذلك وسألته مرّة أخرى:  
ولماذا يحيون ذكرى زعيمهم عندك؟.. هل هذا مكان إحياء  
ذكرى؟

كان صوتي مرتفعاً بعض الشيء في تلك اللحظة، ولا أدري لماذا  
كان مرتفعاً. أو شكت أن أسبّه وأسب قبيلته التي لا أعرفها، وأرى  
وجهه غارقاً في الكحل، وثوبه حتى سرّته، وخاتمه يلمع باستفزاز، ولم  
يبد لي ضحية أبداً كما تصور (أ. ت)، ولكنّ مضحياً عنيداً يواصل  
التضحية حتى النهاية.

أنا موحد القلوب يا خشبي.. أنا موحد الفتن.. تعال غداً  
وستجد عندي مائدة لك ولصاحبك إبليس.. اليوم طبخت جنوبيّة.  
ضحك وكانت ضحكة ثعبان. واليد التي مدها بغتة، ولمس بها  
ساقى الخشبية، كانت بها بقايا حناء.

حين خرجت إلى الطريق، كان الجو غائماً وفيه رائحة مطر بعيد  
وعدة عربات من ماركة اللاندكروزر بلوحات مميزة ومظلمة الزجاج  
بالكامل، تقف على مقربة من المكان. إنهم زملائي القدامى بلا شك،

يراقبون ذكرى الزعيم عن قرب، ولن يسمحوا لها أن تتحول إلى أكثر من ذكرى.

وصلت قصر الجميز وقد تعبت ساقى البذينة والسليمة معاً، وكنت أتوقّف عدة مرّات أتحسّسهما قبل أن أواصل السير من جديد.. في جيبي بدايتي عن المدلّك كاملة، أتشوّق أن أراها للروائي (أ. ت) وأسمع رأيه الذي غالباً سيكون مشجعاً وفي صالحى، لكنّ لم يكن موجوداً هنا أيضاً. على طاولته كانت تجلس (س)، أو النسخة الجديدة من (س)، بعد أن صدرت روايتها (لحظة حب) أو يرقّة حب كما أسميها، حولها وجوه جديدة لم أراها من قبل باستثناء الشاب ذي الشعر المنكوش الذي شاهدته برفقتها في مسرح الشباب الأهلى، بينما الوجوه التي كنت أراها دائماً، توجد على طاولة أخرى.. كانت تجري حواراً كما يبدو، لأن ذا الشعر المنكوش كان يكتب على دفتره.

قطعت حوارها حين شاهدتني أبحر في مدخل المقهى، نادني بصوت بدا لي جديداً أيضاً وفيه رتّة حبت:

تعال يا عبدالله.. هل أكملت (لحظة حب)؟.. رأيك مهم عندي. لم تقل يا فرفار، وتساءل عن رأيي المهم، ولم أقرأ روايتها، ولن أقرأها أبداً، أخاف أن تفسد كتابتي وأجد نفسي أكتب عبارة مثل "كفّ عن تدليك مشاعري أيها المدلّك زوج العمّة.. مشاعري مثل ساقى الخشبية لا تستجيب للتدليك". ضحكت في سري وأنا أستعيد عبارتي التي لا تعني شيئاً، تماماً مثل يرفقتها التي لا تعني شيئاً أيضاً. سأجاملها.. لا بأس، وأعرف تماماً أنها لا تحفل بي أو برأيي، ولكنّ تغتاظ مني بشدّة لأنني اقتربت من نجمها القديم في الأيام الأخيرة أكثر منها، وكانت فيما مضى تجلس قريية من ضلوعه.

- في الحقيقة لم أقرأها كاملة حتى الآن.. لكن بدايتها مشجعة.. أنا مشغول بكتابة رواية.

صحيح يا عبدالله؟.. مبروك.. ألف مبروك.

ضحّت فجأة بفرح مصطنع، وأعرف أنه فرح لا دخل لكتابتي فيه، ولكن ليرقة الحب بلا شك.. كانت تقلبها بين يديها كتحفة ثمينة وهي تخاطبني.

ما موضوع روايتك يا صديق؟.. لا تقل لي قصة حب أيضاً؟

تسخر مني بلا شك، وأنا الذي أرعبتها بساق الخشب ويّنت أمامها في أول يوم رأيتها فيه أنني صاحب محاولات، وعرفت بعد فترة من المخالطة لتلك النماذج، أن صاحب المحاولات في نظرهم لا يعدو كونه متطفلاً بلا نتائج يأتي ليغازل إحداهن أو يشرب القهوة على حساب أحدهم ويذهب. حسناً يا صاحبة سروال الجينز باهت اللون التي احتشمت مؤقتاً من أجل الإعلام حين كانت توقع كتابها، سترين قريباً جداً رواية لا تقل أبداً عن روايات (أ. ت)، ستتعرفين إلى المدلل الذي أحافك هتافه في ذلك اليوم، وفررت من المسرح مستندة إلى ساعد رفيقك الصحفي ذي الشعر المنكوش. تتعرفين إليه مكتوباً بخيال لا تستطيعين أبداً محاكاته.. لم أرد على سؤالها.. وسألت عن الروائي (أ. ت). لم تكن تعرف مكانه، وقال لي أحد الجالسين على الطاولة الأخرى التي تضم أصدقاء الكاتب حين سمع سؤالاً، إن الأستاذ في إجازة من المقاهي والأصدقاء، مشغول بكتابة رواية جديدة قال إنه استوحاها من شخصية مذهلة لا تتكرر كثيراً وأجل رواية لاعب كرة القدم التي كان يخطط لها. لقد رأيته مصادفة بالأمس في إحدى المكتبات، كان يشتري ورقاً وأقلاماً وقال لي: أخبر الأصدقاء عن غيابي.

شعرت بإحباط حقيقي، واستغربت أن يختفي من دون أن يخبرني وأظن نفسي صديقه المقرب، وتلميذه الذي يستمع إلى نصائحه، ويتبع آراءه، وطقوسه، وبحوزتي بداية نابغة من لقاءاتي معه وعن شخصية أخبرته عنها مراراً حتى عرف تفاصيلها، وشاهدها معي طازجة على المسرح. تملكنتي رعدة عنيفة فجأة وأحسست أنني أترنح. لقد سرق الروائي شخصية المدلّك مني بلا شك.. آخ لقد سرقها.. سرقها واختفى ليكتبها.. لا بدّ أنه يجلس الآن عارياً في غرفة ليس فيها ذرّة هواء ليكتب.. لا بدّ أنه يتشرد في حارات وأزقة لا أعرفها.. في سجن.. في ميادين رياضية.. في بيت أمونة الإثيوبية.. ويمكن أن يكون قد ركب حافلة فذرة، سافر بها إلى مدينة سنكة في الشرق ليعيش أياماً فقيرة تذكره بطفولة المدلّك.. لقد كنت غشيماً حين أخبرته، وأرى مشروعي الذي تعبت فيه كلّ تلك الأيام، يوشك أن يضيع. من يقرأ رواية كتبها عبدالله فرفار وعن شخصية كتبها (أ.ت)؟ سيقولون: تقليد مضحك.. سيقولون سرقة.. سيقولون لعب أطفال.. سيقولون. كان رأسي يطن.. أذناي تطنان.. وساقاي البذيئة لا أحس بوجودها، وأسمع من يقول: نقص في السكر.. من يقول: ارتفاع في ضغط الدم.. زيادة في حرارة المعدة.. اطلبوا سيارة إسعاف، وأشاهد شبح الروائية (س).. يتحدث مضطرباً في هاتف محمول.

في المستشفى أخبرني الأطباء بعد أن استيقظت، أنني بلا مرض حقيقي. فحسوا دمي ووظائفي الحيوية من القلب حتى الكلى ولم يعثروا على شيء. انهيار عصبي بسيط ستزول أعراضه بالتدريج يا عبدالله، وتعود لممارسة نشاطك المعتاد.. تعرّضت إلى صدمة بلا شك. كنت أثناء إغماءاتي التي لم تكن عميقة، أحلم، وحلمت بأنني أطفو على موجة عاتية في بحر بنفسجي، وييدي كتاب اسمه (أربع

ميداليات ومدلّك) رسمت على غلافه صورة زعيم جنوبي على رأسه ريشة ديك ملوّنة، ويظهر فجأة من آخر البحر شخص بوجه من نار وأذنين من خشب، يخبرني بأنه الروائي إبليس، يحاول أن ينتزع الكتاب من يدي وأحاول منعه، ونغرق معاً في البحر البنفسجي.

جاءت الروائية (س) برفقة الصحفي ذي الشعر المنكوش وآخرين، لتتأكد من أنني حي، وتحضر لي نسخة أخرى من ورقة حب لأتسلى بها أثناء رقتي. جاء الكثيرون من رواد قصر الجميز نوعاً من الفضول، وفوجئت بوجود العمة (ث) وزوجها المدلّك بجواري ولا أعرف كيف عرفا خبر سقطتي الكبيرة وكانت بعيدة جداً عن بيتهما. لكنّ المفاجأة الحقيقية كانت حين رأيت صاحب مقهى البئر يدخل إلى الغرفة ويده سلة فواكه. كان يصرخ: سلامات يا خشبي.. شدة وتزول يا خشبي.

(أربع ميداليات ومدلّك).. خبطت على رأسي من الغيظ، اسم جاء في الغيبوبة وعلق بذاكرتي حتى بعد أن ذهبت الغيبوبة، يا له من اسم ولكنّ بعد فوات الأوان وبعد أن ضاعت الشخصية المحورية في روايتي. وبرغم ذلك أحسست بشيء من الغبطة. لقد تطورت بلا شك، ومن اسم المسرحي الفاشل إلى أربع ميداليات ومدلّك، لم تكن المسافة كبيرة. أحسست أنني اكتسبت ثقافة، وكان أكبر دليل على تطوري أنني قرّرت أن استمر في الكتابة، أكتب بطريقتي حتى لو لم أنشر روايتي، ونشر (أ. ت) روايته. كان بمقدوري أن أسخّر عدداً من زملائي القدامى للبحث عن (أ. ت) في كلّ شبر يمكن أن يوجد فيه، وأخذه إلى حيث يرك على يديه وركبتيه مستجدياً سيجارة، وكانوا سيفعلون.. لا.. لا.. كاتب اليرقات الآن بعيد تماماً عن كاتب التقارير القديم.



تذكرت فجأة شخصية أخرى لم أحكها كاملة للروائي (أ. ت)،  
لم أحكها لأنني لم أدرسها جيدًا كما درست شخصية المدلل، هذه  
الشخصية ستفيدني بلا شك، سأعمل عليها في سرية تامة، جنبًا إلى  
جنب مع شخصية المدلل، وأرى ما تقدمه.. هنا قررت أن أزور  
المشجع حفار القبور في القصر الأبيض، وبمجرد أن أقف على ساقي  
الخشبية مرة أخرى.

بحثت عن هاتفني المحمول، وعثرت عليه بعد عدة استفسارات،  
موجودًا في خزانة الأمانات الخاصة بالمستشفى. ضغطت على رقم (أ.  
ت)، واستمعت:

"هذا المشترك لا يمكن الوصول إليه الآن.. حاول فيما بعد..  
وشكرًا".

## - 16 -

أمام باب القصر الأبيض، أكبر مستشفى للأمراض العقلية في العاصمة، أخبرني البواب الذي تدل ثيابه وملاحه الوعرة أنه من أبناء الشمال، بعد أن ألقى بنظرة عميقة على ساقبي الخشبية، بأن الزيارة غير مسموح بها في هذا الوقت وعلي أن أعود في العصر إن كنت أتوي الدخول. لم أجادله، وبحثت في جيوبي عن بطاقتي الأمنية القديمة، كانت ما تزال صالحة، ولا كانت عهدة تستردها الإدارة كما استردت السلاح وأجهزة اللاسلكي. في الحقيقة لم أكن أتعمد حمل تلك البطاقة بعد أن تركت الخدمة وطرقت باب الكتابة، لكنّها كانت تقفز إلى جيوبي بحكم العادة كلّما غيّرت ملابسني. عثرت عليها في مكانها المعتاد في جيب القميص، ومررتها أمام عيني البواب الذي ارتعد ورفع يده بتحية عسكرية مضحكة، لم يفتح بوابة الدخول فقط، لكنّه ترك موقع حراسته، ورافقني حتى المبنى الداخلي، وهو يردّد "تفضّل جنابك.. حاضر جنابك".

في عنبر اسمه (عنبر سليمان)، على اسم أحد مؤسسي المستشفى الراحلين، وكان يوضع بداخله المرضى الأشد خطورة، عثرت على المشجّع حفّار القبور (ع. د)، وشعرت بالحزن، ولم أستغرب من شعوري بالحزن. هذا جزء من تطوّر الجديد بلا شك، كاتب اليرقات الذي بدأ يبتعد قليلاً عن كاتب التقارير. كان تائها بشدّة، يحدّق في السقف المقشّر الطلاء وتسقط منه ذرّات على سريره. ملابسه ليست

حضراء صوفية كما كانت في الماضي، ولكن من قماش أبيض خفيف كان يبين جسده الذي هزل بصورة واضحة. كان جسد غلام عجوز. بجانبه على السرير تجلس امرأة على وجهها آثار غم، خمنت أنها زوجته، وأعرف أنه متزوج، ولديه عيال. وكانت قصاصات الصحف التي تحمل صوره في حفل التكريم، منشورة على طاولة بجانبه وقد ابتلت حواف بعضها بالماء. نهضت المرأة حين شاهدتني أخرج رجرج بجانبها، ولم تجفل من ساقى البذيفة، فقد كانت في مكان أشد برؤسا من ساق خشبية.. مخاطبتني وهي تتجّه بنظرها بعيداً:  
هل تعرف زوجي؟.. لم أرك من قبل.

كانت تسألني، والنساء في بلادنا يعرفن من يعرف أزواجهن. الصديق خارج البيت، هو نفسه الصديق داخل البيت، تعرفه الزوجة ويعرفه الأبناء.

علمنا معاً في سن الشباب في مصنع للصلصة، وحين كبرنا شجعنا الفرق الرياضية معاً، هو شجع (البلاب) وأنا شجعت (المارد). كان كلاماً نصفه مختلق، الحقيقة فيه أن المشجع حفار القبور عمل في شبابه حملاً في مصنع للصلصة، لا أعرف حتى مكانه وإن كان ما زال مفتوحاً أم أغلق، وحصلت على تلك المعلومة بعد يوم من التقصي، وفريق المارد الذي ادّعت بأنني أشجعه، كان في الواقع ذلك الفريق الذي يعمل فيه المدّك زوج العمّة. وليست لي أي علاقة بالفرق الرياضية سوى أن بعض مبارياتها تقام بالقرب من بيتي.  
- انظر إلى حالته.. ساعده أرجوك.

كانت تبكي وأحسّ أنني امتلأت بالعواطف، ولو كتبت المشجّع حفار القبور ساكتبه بنفحة إنسانية حزينة. في رقدته الذاهلة تلك، محاطاً بصور التكريم التي أفقدته عقله وتوشك أن تفقده حياته، كان

موحياً. إجماء المأساة واضح جداً.. واضح في المكان وفي ذهني، أي طقس من طقوس الروائي الخائن، سارق شخصية المدلل يمكن أن يصلح لكتابة المأساة يا ترى؟.. طقس الأنافة في هو فندق راق مرتدياً بذلي المعدلة بمقص الخياط (خ. ر)؟.. طقس العري في غرفة بلا نسمة من هواء؟ طقس التشرّد في الشوارع والحفر؟.. لم يقل الروائي أبداً أنه كتب يوماً في مستشفى دخله مريضاً بأعراض كاذبة ولا في مقابر حفر فيها قبراً ورقده فيه يكتب.. قد أستطيع فعل ذلك، ويكون طقسي لكتابة المشجع حفار القبور، الهزيل شبه الميت في عنبر سليمان.. ترى من يحفر قبره إذا مات؟

كانت الزوجة تنتشلي من أفكاري المتلاحقة. ترد على أفكاري وتخبرني أن أصدقاء زوجها عثروا على قبر محفور في مقابر عمران حيث كان يعمل، وعليه شاهدان كتب عليهما اسمه وتاريخ ميلاده، وترك تاريخ الموت حتى يحدث. هو من حفر قبره إذن، ولعله آخر قبر حفره، قبل أن يضيع. اليوم سأكتب سيرة المشجع، اليوم سأكتبها، ناسياً ما حدث من صدمة وانهايار، وعندما يعود الروائي (أ. ت)، مغتبطاً وحاملاً روايته الجديدة المسروقة، سيجد عندي رواية أخرى لن يعرف أحد عنها شيئاً. كنت أخرج هاتفي أمام المرأة بلا وعي، أرن على الرقم الذي بات شاغلي كلما انقطعت عن التفكير في الكتابة وأسمع الرد الآلي نفسه:

"هذا المشترك غير موجود في الوقت الحالي..".

وضعت أمام المرأة بضعة جنيهاً أخرجتها من محفظتي، وخرجت من القصر الأبيض، بلا أي وعد أقدمه لها في شأن مساعدة زوجها. كان المكان بعيداً عن وسط العاصمة، في ضاحية محاطة بخلاء جاف، وعثرت على عربة للأجرة بصعوبة شديدة. كان السائقون مكارين

يقيّمون من يشير إليهم بهندامه كما يبدو، وكانوا بلا شك يقيموني بساقي البديئة ولا يتوقفون. والسائق الذي توقف أخيراً لم يكن في الحقيقة سائق عربة للأجرة كما قد يعتقد الركّاب، ولكنه أحد زملائي القدامى. وكان شاباً من الذين شاركت في تدريبهم وإلغاء مشاعرهم في السنوات الأخيرة، وقال لي وهو يقلني إلى قصر الحمير كما طلبت منه، إن لدي ملفاً قد انفتح في الإدارة مؤخراً، وهو الذي فتحه بنفسه، ليس بصفتي القديمة عبدالله حرفش، تمهيداً لإعادتي للخدمة، ولكن بصفتي الجديدة، مثقف مشبوه يجب أن يتابع بدقة. قال: خذ حذرك يا عم قرفار.. أخبرتك بدافع العشرة.. بدافع العيش والملح.

كدت أضحك وأنا أتحيل نفسي مشبوهاً تتابعه الأجهزة الأمنية، وقد قضيت عمري كله وراء المشبوهين حتى حدث حادث المزرعة المباغت، وكان أكثر ما أضحكني هو أنني لم أقدم إنتاجاً يمكن متابعته، حتى الآن.

في قصر الحمير لم يكن ثمة أحد من الجوقة في وقت عادة ما يوجدون فيه، وأخبرتني إحدى النادلّات الإثيوبيات بلغتها المغرية المتكسرة، أنهم تجمّعوا هنا مبكراً، وغادروا إلى الحفل. لم أكن أدري أي حفل تعني، حفل توقيع؟ ولكن لا أعرف كتاباً صدر لواحد منهم ليقام له حفل، وقد أقامت (س) حفل توقيعها في قاعة رشا وانتهى. جلست على طاولتي منفرداً، طلبت قهوة مرة، وأخذت أراقب ضحيج المقهى. كان ثمة رجل يرتدي الثوب والعمامة ويتلفّت في قلق، وعرفت بسهولة أنه من الزملاء لكنّ بلا خبرة. كان من دون شك يراقب شخصاً في المقهى وربما أكون أنا ذلك الشخص، وسيدتين أجنبيّتين، لعلهما من أوروبا أو أمريكا، ترتديان كثيراً من الأكسسوارات المحلية المصنوعة من الخرز وسن الفيل، وتحاولان أن تتحدثا بالعربية، وتطلبان من النادلة

إحضار بخور (القرض)، المعروف في ثقافتنا بطرد العين والحسد، ولم يكن ضمن بخورات قصر الجميز. كنت أفكر في المدلل وحفار القبور معاً: واحد يضجّ حياة والآخر يخطو إلى الموت. لماذا لا أكتبهما معاً؟.. لماذا لا أمزجهما في نص معقد يخاف منه (أ. ت) حينما يعود، يلغي نصه المسروق مني ويقبل رأسي ويعيد لي شخصية المدلل معززة مكربة. ابتسمت في سري. بدأ خيالي يتسع بلا شك.. يتسع أكثر من اللازم.

في طريقي شاقًا مقبرة عمران، حيث كان يعمل المشجع حفار القبور في السابق، ويرقد الآن في قبر حفره بنفسه قبل أن يضيع، توقفت عدة مرّات أمسح العرق عن وجهي، وأكتب عدة ملاحظات أوليّة نخطر ببالي عن روايتي، على الورق الأصفر الذي أحمله في جيبي ولا يفارق ذلك الحبيب. كانت المقبرة عتيقة وبعيدة عن بيتي ووصلت إليها بعربة ركشة مستأجرة، طلبت من سائقها أن ينتظري حتى أعود ولم أكن واثقًا أنه سيفعل. وقد لفتت نظري تلك البنايات المتعددة الحديثة التي أنشئت بقرب المقبرة، ولم أزرها منذ دفنت أمي قبل أكثر من خمسة عشر عامًا، وكان أكثر تلك البنايات لفتًا للنظر، مبنى أبيض بطابقين على مساحة كبيرة من الأرض، كنت أرى عبر سوره المنخفض ومن بين فراغات الأشجار الخضراء التي تحيط بالسور، عددًا كبيرًا من الأطفال يلعبون الكرة أو يتسابقون في بهجة، أو يتأرجحون في أرجيح من الحبال منتشرة في المكان، ونساء بثياب بيضاء يتبعثرن وسطهم، وقد اختلط صراخهن بصراخ الأطفال. لم تكن ثمة لافتة على الباب الكبير المطل مباشرة على المقبرة. واستطعت بقليل من التخمين أن أعرف، أنه مبنى رعاية اللقطاء الذي أنشئ مؤخرًا بمساعدة بعض المحسنين من داخل البلاد وخارجها، وتوضع فيه ثمار الخطيئة، أولئك الذين يعثر عليهم رضعًا في الشوارع ومكبات الزبالة وأسطح البيوت المهجورة، وقد تخلّى عنهم أهلهم الخاطئون. لم تكن إدارتنا معنية بتلك المسائل التي كانت

اجتماعية ولا علاقة لها بالأمن، ولا كان ثمة سبب يأتي بي إلى هنا، لولا موت (ع. د)، في عنبر سليمان بالقصر الأبيض. شخصيتي التي كتبت جزءاً كبيراً من سيرتها المتخيلة، ومزجتها بسيرة متخيلة للمدلك زوج العمة، وأنتظر بها الروائي الخائن حتى يعود وأصدمه حين يقرأ ما كتبت. لم أكن أحمل له ضغينة ولا كرهاً وأعتقد أن خيائته هي التي حفزتي، وجعلتني منكباً على الورق عدة ليال.

كانت قد مضت خمسة عشر يوماً على اختفاء الروائي، ولم أكف عن الضغط على رقمه في هاتفه ولا أقطع الاتصال إلا بعد أن تنتهي الرسالة الآلية المملة: حاول مرة أخرى، وأحاول مرّات ومرّات. وقد ذهبت إلى بيته في أحد الأيام، طرقت الباب بعنف يشبه عنفي القديم حين كنت أطارد حائناً واقتنصه في أحد الجحور. وكان الباب قد انفتح لدهشتي ولكن لم يكن الروائي من فتح، كان شخصاً آخر أصغر سنّاً، يحمل بعضاً من ملامح الروائي، عرفت أنّه أخوه الذي يقيم في مدينة إقليمية في غرب البلاد، ويأتي إلى العاصمة من حين لآخر لزيارته، وكان يملك مفتاحاً للبيت يستخدمه متى ما جاء. لم يكن يعرف شيئاً عن اختفاء أخيه، لكنّه لم يفزع، قال: أكيد أنه يكتب في مكان ما.. لا مشكلة. طبعاً لا مشكلة بالنسبة إليه، ولكن مشكلة كبرى بالنسبة إلي.

علاّل تلك الأيام الخمسة عشر، ذهبت عدة مرّات إلى قصر الجميز، اختلطت بالروائية (س) وجوقتها الجديدة التي تكوّنت بعد أن نشرت كتابها، وأخبرتها بعد إلحاح شديد منها عن موضوع تلك الرواية التي أكتبها، ألها عن كوكب المريخ الذي تخيلت أن فيه حياة وكائنات مهددة بالموت بسبب الفيضانات والأعاصير، ونسجت روايتي.

- لم أكن أعرف أنك واسع الخيال هكذا.



كانت تقول، ولا ترفع يدها لتعيد غطاء الرأس الحريري الذي سقط كاشفاً عن شعر مشقّر بلا ذوق، ولا كانت تشبه الشقراوات في شيء، وواحد من جلسائها يقرأ مقطعاً من (لحظة حب)، بصوت خافت، ثم يصيح: يا الله.. أنت حقاً مبدعة. الفتاة المندفعة وطلت حلية النحل بثقلها كله، وقطعاً تضخم ملفها في إدارتنا.

أيضاً ذهبت مرّة إلى مقهى البئر، وكلّي أمل أن يكون (أ. ت) جالساً هناك، وتكون شخصيته المذهلة التي يكتبها، هي الضحية صاحب المقهى، خاصة أنه كتب مثلها في رواية (أبناء سعد المحتالين) ورواية أخرى لم أقرأها بعد بالرغم من أنني اشتريتها من مكتبة أعلاف ضمن الكتب التي شكّلت نواة مكتبي، لكن أيضاً لم يكن هناك، مددت رأسي من الباب وسحبته بسرعة، وأسمع الصوت الأنثوي لصاحب المقهى يناديني:

تعال يا خشبي.. هل تحسنت صحتك وخرجت؟ تعال.. طبختي اليوم من كل الأصناف.

وكان محقاً لأنني شاهدت حين مددت رأسي عشرات السحنات المختلفة لعشرات القبائل والأعراق. هممت أن أعود وأسأله إن كان قد رأى إبليس في الأيام الماضية.. لكنّ صوته كان يردد..

أين إبليس يا خشبي؟.. هل مات في النار؟

وازداد استغراباً.. لماذا إبليس؟

كان إعلان شركة (نابي) للمشروبات الغازية التي أنشئت حديثاً، قد أنجز بسرعة استغربتها، وشاهدته مضطرباً حين عرض على شاشة التلفزيون المحلي لأول مرّة، وجدت المدلّك يطرق بابي برفقة العمّة، ويدخلان بلا كلام يحملان صندوقاً من مشروب نابي يضعانه على الطاولة، حيث يتجه المدلّك مباشرة إلى تلفزيوني المغربي الذي نسيت أمره

منذ مدة، وركنته في غرفتي الداخلية بجانب عدد من الأشياء المهمة،  
ينفضه جيداً، يعود به إلى الصالة الخارجية، ويوصله بالكهرباء، ثم  
يفتحه على القناة المحلية ويشعل سيجارة.

"إشربوا ناي وعودوا شباباً.. إشربوا ناي وتذوقوا طعم الحياة".  
ويظهر المدلّك في الإعلان، عجوزاً يتوكأ على عصا بنية، ويمسك  
بالقنينة التي لوّحاً أحمر، يتجرّعها ببطء ويتنفس بعمق، ثم لقطة أخرى  
يظهر فيها مصبوغ الشعر.. نافخاً صدره، يرتدي ملابس شبابية،  
ويقف على ناصية شارع مزدحم، يغازل فتيات المدارس ويتسمن في  
وجهه.

تعرف يا فرفار.. هذه الدعايات فيها الكثير من الصدق.. أنا أحس  
بفورة الشباب قد عادت منذ أن بدأت أشرب (ناي) بشكل  
منتظم.. اسأل العمّة إن كنت لا تصدق.. نخذ.. جرّب.  
ويمدّ لي يده بقنينة منه بعد أن فتحها بأستانه وسالت قطرات منها  
على ثيابه. أشربها صاغراً، ولا أحس سوى بطعم نعناع مخمّر، يصيبني  
بالغثيان. وألمح العمّة تغطي وجهها بطرف ثوبها خجلة، بينما حنّاء  
كثيفة تبدو على يديها وقدميها. آخ يا مدلّك.. آخ يا زوج العمّة  
الغني، لماذا سرقت مني بهذه الطريقة؟

هل منحوك مبلغاً جيداً على هذا الإعلان؟  
أسأله وأتوقع أنه بلا مقابل، ولم يكن إعلاناً جاذباً في نظري وقد  
تعوّد الناس وجوهاً ذات طعم، تظهر في الدعايات، وتغري بالشراء،  
لكنّ المدلّك يفاجئني، يمد يده إلى حقيبة يد نسائية كانت معلقة على  
كتف العمّة، ولم أرها تحمل حقيبة نسائية من قبل، يفتحها ويخرج منها  
تذكريتين من تذاكر الطيران، عليهما شعار طيران الإمارات، يلوّح بهما  
في وجهي:

- لا تنس أن تكتب هذا في قصتك.

عشرت على قبر المشجّع أخيراً وجلست بجانبه أقرأ الفاتحة على روحه. كان في وسط قبور أخرى، قرأت أسماء شاغليها وبدأت لي أسماء مألوفة كأني سمعتها من قبل، ربما كانت لسياسيين معروفين رعوا في البلاد من قبل، أو مغنين ملأوا الدنيا ضجيجاً وذهبوا، أو لاعبي كرة من ذلك المجتمع الذي عاش فيه المشجّع حفار القبور طويلاً وأحبه ومات من أجله. أخرجت واحدة من أوراق الصفر من جيبي.. كنت أكتب ملاحظاتي ووجدتها بعد أن قرأتها عدة مرّات بعد ذلك، سطوراً لا بأس بها، وسأدخلها في الرواية. كتبت:

"حين نظرت إلى قبره في تلك الساعة والشمس تبدو متعجّلة للمغيب لتفسح مكانها لليل، لم يبد لي أنني أنظر إلى حفرة قاحلة تضم جسداً بلا روح، ولكن غرفة معطرة، ومضمّخة بالبخور، تضم عريساً يزف في ذلك اليوم إلى عروسه. تذكّرت صوته الضخم حين كان يملأ الميادين ضجيجاً، يديه القويتين حين تدفّان الأرض، فيهرب التراب مذعوراً".

سطور فيها خيال يا (أ. ت).. أليس كذلك؟، ستجنّ حين تسمعها، وتسمع غيرها الكثير.

## - 18 -

في أحد الأيام، وكنت في طقس العري لا أرتدي سوى سروالي الداخلي، جالساً في غرفتي مسدلة الستائر، وبلا ذرة من هواء، أكتب على ورقي الأصفر، أضيف وأعدل، سمعت هاتفني المحمول يرنّ وكنت قد نسيت إغلاقه. وفي العادة أغلقه حين أكتب، أيضاً أنزع الساق البذيئة عن جسدي، أبعدا عني أطول مسافة، كيما أحس بالعجز ولا أتحرك حتى لو شعرت بالملل.

كانت قد مضت أكثر من ثلاثة أسابيع على اختفاء الروائي (أ).  
(ت)، وذهبت إلى بيته مرة أخرى، ليفتح لي أخوه مرتدياً ملابس داخلية مبتلة ويلفّ رأسه بمنشفة وردية باهتة، وأشاهد من فتحة الباب التي حاول أن يسدها بجسده، شيخ امرأة شبه عار يتحرك في صالة البيت، لكنّ الروائي لم يكن قد ظهر بعد. وكان المدلّك والعمّة قد سافرا إلى دبي مرة أخرى، قضيا ثلاثة أيام في فندق (غُلوم إخلاصي) الذي أعجب المدلّك، وحدث مشرفي الرحلة من شركة (ناني) للمشروبات الغازية عنه، ومن ثم حجّزوا لهما غرفة فيه. عادا وزاراني في بيتي وسلّماني هديتي التي كانت هذه المرة أرفع شأنًا، كانت ساعة من ماركة اسمها (باتي) لم أسمع عنها قطّ من قبل، كانت ذات مينا سوداء وبلا عقربين، واضطرت أن ألبسها أمام المدلّك الذي نزع عن يدي ساعتي (الوست اند) القديمة ذات المينا الخضراء الباهتة، وهو يصرخ:

هل تسمّي هذه التي تلبسها ساعة يا فرفار؟.. ألقى هذه الخردة في الزباله.

وكان أن طوّح بها بقوة، لتتكسر على حائط الصالة الأسمنتي، وأفقد في لحظة قهّور منه، واحداً من تذكاراتي التي أحترمها بشدة.. ساعة قضت معي نصف العمر وكان يمكن أن تقضي معي العمر كلّهُ لو لم تتحطم. صرخت في وجهه، وكانت المرّة الثانية أو الثالثة التي أصرخ فيها، بوجهه، لكنّه لم يعبأ، كان يتحدث عن دبي بلا توقّف: تخيّل يا فرفار أهم برّدوا الصيف بالتكنولوجيا، جلبوا الجليد من أقصى الأرض، تخيّل أهم يسكنون الجنّة.. هل تعرف ما هي الجنّة؟.. لا تحزن.. في الرحلة القادمة سأدبر لك تذكرة مجانية وحجرة في فندق غلوم.. صديقي غلوم الطيب.. هل تعرف أنه كان متسولاً في الشوارع حين قدم من بلاده، وتحول بذكائه إلى صاحب فندق؟.. هو من أخبرني بنفسه.. صحيح أن فندقه لم يدخل تصنيف النجوم، لكنّه أرقى من الهيلتون.. والله العظيم أرقى.. إسأل عمّتك إن كنت لا تصدق. إسألها عن الملاءات والستائر والحمام الإفرنجي.

وأتوقّف عن الصراخ، لقد هزمني، حفزني على الاستمرار في كتابة الغرابة التي أتوقع ألا تكون يرقّة هذه المرّة.. لكن أين من كان يستمع إلى البَرَقات وقيَمَها؟

التقطت هاتفي بعد أن رن كثيراً، ست أو سبع رنّات بموسيقى أغنية (حياتي) القديمة التي كانت أغنيتي المفضّلة، وارتعدت قليلاً حين شاهدت رقم مسؤولي السابق، وكان مسجّلاً على الهاتف، لم أحبه كما محوت أرقام كثير من زملائي القدامى حين ألقعوا عن المواصله، أو الرد على اتصالاتي. في الواقع كنت أخاف كلّما فكّرت في محوه. كان ذلك

جزءاً من تدريبي المهلك، أن يظل مسؤولك هو مسؤولك حتى لو مات، حتى لو مت أنت.

ضغطت على زرّ الرد وأنا أحاول التماسك، وسمعت المسؤول يخاطبني بصوت حاد:

لماذا لا ترد على اتصالي مباشرة يا فرفار؟.. تعال إلى مكثبي في الإدارة فوراً.. أظنك لم تنس أين توجد؟

أغلقت الهاتف وقد تملكني الحيرة. شهور طويلة مضت منذ بترت ساقِي، وتقاعدت، وتطوّرت، وما رأيت المسؤول مرّة أخرى إلا حين قصّده لتخليص (الطائر الذبيح)، تخليص الروائي الخائن من سردابنا الذي قضى فيه ثلاثة أيام قاحلة جفّفت أفكاره كما قال، ثم ليخبرني أحد الزملاء وهو متنكر في هيئة سائق عربة للأجرة، أن لي ملفاً فُتح مؤخراً. أنا خائف، حقيقة خائف وأحس الآن بشعور مئآت، بل آلاف اقتنصتهم من قبل ولا كنت أملك شعوراً.. إعادتي للخدمة مستحيلة وأنا بهذه السباق المحزنة. قطعاً سأؤخذ ويريدوني أن آتي بنفسي، أن آخذ نفسي بنفسي.. تلك اللحظة لعنت بائع الورد البنغالي في نيس وامراته المهاجرة الإفريقية التي جعلته يكتب رواية، الإسكافي الفقير من رواندا وحربه المشؤومة، وبائعة الهوى النافهة التي بهرت القراء بروايتها، وأوشكت أن ألعن المدلّك زوج العمّة وحفّار القبور الميت لأكما اعترضنا طريقي وأوهمني أنهما شخصيتان غنيتان، والروائي (أ. ت) أيضاً، لأنه جعلني أقرأ (على سريري ماتت إيفا)، و(أبناء سعد المختالين)، وكثيراً من القصص الأخرى، وصادقني حتى حانت لحظة السرقة وسرقني.

ماذا لديك ضد كاتبها؟

سؤال المسيحي (ر. م) صاحب مكتب (أعلاف) حين اشتريت إيفا، مازال يرنُّ في أذني.. ليس لدي شيء ضد كاتبها.. أنا خارج

الخدمة، أنا كاتب، صاحب محاولات، لكن الإدارة بالقطع لديها أشياء ضده وضدي وضد الروائية (س)، صاحبة ورقة الحب وسروال الجينز باهت اللون التي احتشمت مؤقتاً يوم وقعت كتابها، وضد كل من يجلس على قصر الجميز وغيره من المقاهي الخائنة التي تمتلئ بالأشقياء وناسجي الدسائس والمؤامرات. أنا في مصيدة بلا شك ولا أعرف إن كانت مصيدة فأر، أم حفرة عميقة بلا قرار.

وصلت إلى مكتب المسؤول في مبنى الإدارة، بعد ساعتين، نصفهما انتظار في الطريق بحثاً عن مواصلة تقلي، ونصفهما محشور في باص تافه من باصات النقل العام، ليس فيه واحد يملك نخوة ليقوم ويجلسني في مكانه، وقد ارتفع ثوبي عالياً مظهرًا ساق الخشب.

وجدته جالساً خلف مكتبه في هدوء واستقبلني بابتسامة هي في الواقع لدغة، تقصيتها وعرفت أنها لدغة. أمامه نسخة من رواية (لحظة حب) للروائية (س)، وملفان صغيران، كتب على غلاف أحدهما بخط أسود عريض (س)، وعلى الآخر بنفس الخط.. (ع. ح)، أو (ع. ف)، عرفت أنهما ملف الروائية، وملفي الذي فتح مؤخراً.

إجلس يا قرفار.

وجلس في صمت محاولاً أن أبدو في مثل هدوئه.

أين بطاقتك العسكرية؟

- في جيبي سيدي.

هاهما.

أخرجتها من جيب القميص حيث اعتادت أن تقفز إليه بلا وعي مني وأنا أستبدل ملابسي في كل مرة.. لقد أخذت بلا شك.. مفارقة كبيرة أن يؤخذ من كان يأخذ، أن يرتبك من كان يربك،. أخذ

المسؤول البطاقة من يدي، ألقى عليها نظرة فاحصة وتأكد من أنها ما تزال صالحة، وأدخلها إلى ملفي ثم واجهني:

هل تعرف سبب استدعائك يا رقيب عبدالله؟

لا سيدي.. ليست لدي فكرة.

هل ترى هذين الملفين؟

كان يعث بالملفين، بينما لدغة الثعبان على شفثيه أكثر وضوحًا، وثلاثة هواتف في مكتبه ترنّ دفعة واحدة، ولا يمد يده إلى أحدها.. ليست لدي فكرة؟.. في الواقع لدي ألف فكرة.

ملفك الذي سأمزقه الآن، مقابل ملفها الذي أود رؤيته ممتلئًا ويحمله رجلان من شدة ثقله. ملف الطائر الذبيح أيضًا، وملف كلّ من يقترب منها أو منه.. كلّ شيء حتى الشامبو الذي تغسل به شعرها، ونوع طلاء الأظفار الذي تستخدمه، كلّ شيء.. كلّ شيء.. أدخل عواطفها.. إحساسها.

نفضت مضطربًا، وأحسّ بالمغص، والحموضة، وسوء الهضم وأنني لست جائعًا بالرغم من أنني لم أكل منذ عدة ساعات، كان صوتي ضعيفًا وأنا أردّد:

لست في الخدمة يا سيدي.

بل أنت في الخدمة.. الخدمة الممتازة، لقد ترقّيت يا فرفار، عدلت رتبتي ودرجتك المالية، و..

وساقي الخشبيّة يا سيدي؟

أقاطعه بصوت أضعف، وأحس ببوادر الإغماء، تمامًا مثلما حدث لي يوم عرفت بأن الروائي (أ. ت) قد خانني وسرق متني شخصية المدلّك، لكنّ المسؤول يستمر، والمسامير المدقوقة في الرأس تستمر.



- إذهب إلى الرقيب (ط)، وتسلم عهدتك، وبطاقتك الجديدة،  
إذهب.. سافك ممتازة جدًا خاصة حين تذهب بها إلى المقاهي  
والندوات، وخیالك أظنه تحسن أيضًا.

كنت أخرج مترنحًا من مكتبه، وأسمع صوت ورق يتمزق،  
وثلاثة هواتف ترنّ دفعة واحدة. سافك ممتازة لأنني جرجرتها في سكة  
الخطر، وخیالي تدرب بفعل مكنتي التي ماتت وهي في المهد،  
ومحاولات الروائي (أ. ت)، للارتقاء ببقاتي حتى تكتمل.. كنت أقف  
بترنحي كاملاً في الطريق، أمسك بكيس ضخم يحوي عدتي، وتقف  
أمامي سيارة الأجرة التي تتبع إدارتنا، والسائق الشاب الذي دربته،  
يترجل، يحمل الكيس عني، يضعه في داخل العربة، ويفتح لي الباب  
الأمامي حتى أجلس.. كان يردد:

تحياتي يا عم عبدالله. تبارك سعيد يا سيدي.

## - 19 -

بدأت بإفراغ الكتب من مكتبتى الوليدة، وأنا ألُهِثُ ويصبُّ من جسدي العرق، ولا أتذكر أي رفٍّ منها كان سيمتلئ برواياتي العديدة التي اعتزمت كتابتها في تلك الفترة التي توهجت فيها بعنف، أربع ميداليات ومدلك.. تكريم وموت.. سرقة في وضوح النهار، سيرة تفاحة.. سجناء في سرداب.. كلُّ تلك العناوين الملفتة، الشخصيات الموحية الغنية، المدلِّك زوج العمّة، حفار القبور مشجع كرة القدم، وصاحب مقهى ضحية أو مضحّيًا، يحتاج إلى خيال جامع حتى يكتب في هذه الحالة أو تلك. كانت أمامي عشرات الأوراق التي ملأتها بكتابة مزجت فيها بين الواقع والخيال كما أتصور، وأضفت مفردات من اللغة، تعلمتها بجهد أشهر من السعي المنهك. ليست يرقّات بلا شك، وأعرف أنّها ليست كذلك والروائي (أ. ت) كان سيعرف، لأنني قارنتها بصفحات عديدة من الكتب التي أفرغها الآن، ولا أعرف في أي ركن مهمل من بيتي سأركنها. وجدتها تقترب من مستويات تلك الكتب. كان الجهاز اللاسلكي الأسود المصنوع في الصين، يرطن بلا توقف، ويحكى عن فيضان صغير حدث في حي (جابر) الشعبي، وثمت السيطرة على اندفاعت المياه أخيرًا، عن العفريت الذي ظهر في بعض شوارع العاصمة، يوزع المنشورات المضادة للسلطة، وعفاريثنا التي تطارده ببسالة وتوشك أن تقضي عليه. وسمعت صوتًا حادًا يصرخ فجأة:

(ع. ح) .. (ع. ف) .. أكد وجودك حيث أنت ونوع العمل  
الذي تمارسه الآن. فتوقفت عن إفراغ الكتب وقد ارتبكت، انتصبت في  
وقفتي وأمسكت بالجهاز، وأنا أردد:  
تمام سيدي.. أنا في المستنقع.. أخلص من البيض الفاسد.  
رد الصوت: علم.. شكرًا.

المستنقع هو بيتي للأسف، وبدأ لي في تلك اللحظة مستنقعًا  
بالفعل، وكانت الكتب هي البيض الفاسد الذي أزيله وأكاد أبكي.  
كان التلفزيون القديم قد عاد إلى الخدمة اليومية، وكان مفتوحًا  
على القناة المحلية، ويقفز المدلل زوج العمّة من سطح منزل عال بعد  
أن شرب زجاجة من مشروب نائي: افقزوا كلّكم.. باستطاعتكم القفز  
الآن.. (نائي) رمز القوة. كان هذا هو الإعلان الثالث للمدلل برفقة  
شركة (نائي)، وأتخيل تذكرتين للطيران تبرزان من جيبه، وورقة إقامة  
خضراء عليها شعار فندق (غلوم إخلاصي)، والعمّة ممسكة بيده وعلى  
وجهها علامات الهيام كلّها.. نظرة حجلة وابتسامة شفافة. انتهيت من  
إفراغ المكتبة، جرحتها فارغةً بصعوبة، وحشرتها تحت سريري بعد أن  
فكّكتها. حملت الكتب، حشرتها بجانبها، وأخرجت ورقة كنت قد  
وضعتها في صفحة كتاب انهمكت فيه، حتى أعرف أين توقفت، كانت  
رواية عن الحرب في العراق، ترجمت عن الإنجليزية، أبطالها ثلاثة زنوج  
من مشاة البحرية الأمريكية، وجدوا أنفسهم فجأةً يتمزقون في حرب  
لا يعرفون جدواها، ويجلسون يوميًا في الليل، يتأملون الظلام، سيكون  
ماضيهم، ويتخيّلون مستقبلًا بائسًا ينتظرهم.

بالأمس وبعد أن عدت إلى بيتي برتيتي الجديدة وعتادي الجديد،  
وعقلي الذي أعيد إلى نقطة الصفر، تملكطني الرغبة في الذهاب إلى قصر  
الجميز، كنت أودّ أن أودّعه بوصفي كاتب يرقات حيّة أو شكت أن

تكتمل حشرات، قبل أن أعود إلى الوراق مرة أخرى، أردت أن أرى الروائية (س)، كاتبة وليست هدفًا، وجلساءها مثقفين محترمين وليسوا مشبوهين، والنادلات الإثيوبيات المغريات، حين يكسرن اللغة، لن ألاحظ تكسّر لغتهن بعد اليوم، فليست من ضمن الخروقات الأمنية.

كانت الروائية (س) موجودة ومبتهجة وتحتضن نسخة من كتابها. الشاب ذو الشعر المنكوش والقلم خلف أذنه، موجود أيضًا، وظهر النحيل الذي كان دائمًا برفقة كتابين ورأيته يلتقط الصور للروائية في حفل توقيعها، وكان يحملهما هذه المرة. رأيت كاتبة قصة عجوزًا اختفى منذ عدة سنوات، ادعى أنه كان منقطعًا فيها للقراءة والكتابة وتقييم تجربته، وأعرف أنه كان في السجن، وشاعرًا من شعراء الحداثة، يتغزل في واحدة من النادلات الإثيوبيات وسيجارته تحترق. لقد عاد صاحبك إلى الظهور.

هتفت الروائية (س)، وغطاء رأسها الحريري الأزرق ملقى على الكتفين بإهمال، حالما رأيتني أترنح داخلًا. من صاحبي؟

الأستاذ يا أخي.. مالك يا عبدالله؟.. هل تشعر بمرض؟.. لقد أكمل روايته الجديدة ورفض أن يحدثنا عنها.. كان يبحث عنك. جميل جدًا.. لقد ظهر الخائن أخيرًا بعد أن عمل ثلاثة أسابيع أنجز فيها كتابه المسروق، ثلاثة أسابيع فترة قصيرة بلا شك، لكن لا بد أن حجم الإيحاءات التي منحتها له بسذاجة، ومدخل الشخصية ومخارجها قد شحنته وجعلته يكتب بسرعة خيالية. اختفى يوم المظاهرة من دون أن يودعني، ولا شك كانت المظاهرة هي الحافز الأول له ليهرب ويبدأ الكتابة فورًا.. ماذا يريد مني؟ وهل له عين ينظر بها إلى وجهي؟ لو كنت مكانه لما ظهرت أبدًا في مكان عام مرة أخرى، ولظلمت مختلفًا

إلى الأبد، أكتب مختفياً وأنشر مختفياً وأحاور الصحفيين من دون أن يروني، كيف سيواجهني يا ترى؟.. هل سيحدثني عن روايته الجديدة أم يكتفي بالسماع إلى يرقاتي.. وهو يجلس أمامي في مقهى البئر، أذن معي وأذن مع الصحراويين أو أبناء الريف المزعجين، وربما مع امرأة زنجية أخرى تبكي على حبيب متمرّد؟. أنا سألتقيه وسأكون بارداً جداً. فلم يعد يهمني شيء.. لست كاتباً بعد اليوم.. أنفذ الأوامر فقط وكما كنت دائماً. وحتى ورقي الأصفر لم يعد موحياً، ولكنّ يتشوق إلى الكتابة القديمة.

وأين هو الآن؟

اليوم هو مشغول جداً.. لديه عدة مواعيد.. ولكنّ ينتظر غداً في مكانكما المعتاد.

لماذا يترك لي رسالة؟.. لماذا لم يهاتفني مباشرة، ويعرف رقم هاتفي جيداً؟.. هل هو مستح مني؟

وجدت نفسي بلا وعي أخرج هاتفي المحمول، أرّن له وأستمع إلى الرسالة الآلية المملة بعدم وجود المشترك، وتطالبي بالمحاولة لاحقاً. وشكراً.. دائماً شكراً.

الوقت يقترب من الظهر، كما هو مبين في ساعة (بائي) الجديدة، التي لم أحبّها، وبدت لي أشبه بجسم غريب حول معصمي الذي تعودت الوست اند المخطّمة. التلفزيون ما يزال مفتوحاً، وقد أعيد إعلان المدلّك وشركة ناي عدة مرّات، وأزداد كرهاً للإعلان وللمدلّك وللمشروب الذي كان نعناعاً مخمّراً يصيب بالغثيان. "وصلت إلى التلفزيون يا فرفار..". لقد كان فرحاً بوصوله، وأضاف قلادة جديدة إلى صدره كانت زجاجة مطاطية من مشروب (ناي)، وأي مجنون عبيط يمكنه الوصول.. الجهاز اللاسلكي أيضاً كان مفتوحاً ولا تتوقف رطانته:

عصافير الجنة الصغيرة أكلتها الصقور يا ويلته.. أهل البراري تحضروا  
وأهل الحضر سكنوا البرية.. اليوم مساء عرس الأبله على صاحبة  
صالون التجميل، كونوا حذرين.. والصوت الحاد يصرخ:  
(ع. ح) .. (ع. ف) .. هل أزلت البيض كله؟  
أردّ وأنا أقف منتصباً:  
تماماً سيدي.. كله.

أغلقت التلفزيون، والجهاز اللاسلكي، لم أحمل أي ورقة من تلك  
التي كتبتها، وكنت أنتظر بها الروائي لأبكره وأجعله يموت من الخجل  
والأسف على سرقة. في الواقع مزقت تلك الأوراق بعدّها بيضاً فاسداً،  
تماماً مثل الكتب. سأذهب إلى لقاء الأستاذ بلا ضغينة، أحاول أن أكون  
الشخص الذي يعرفه، سأقول: إنني لم أكتب وانقطعت للقراءة فقط  
أثناء غيابه. لقد أصبح هدفاً ويجب ألا يحسّ بأنه هدف. وقفت في  
الطريق أنتظر أي مواصلة ووجدت عربة الأجرة التي تتبع إدارتنا تقف  
أمامي فجأة والسائق يخاطبني مبتسماً:  
- تهانينا بإزالة البيض الفاسد يا عم عبدالله.. تهانك سعيد.. تفضل.

كان صاحب مقهى البئر يقف في المدخل، قميصه مرفوع إلى ما فوق ركبتيه، ويتحدث بغضب أنثوي صارخ إلى واحدة من بائعات الشاي المنتشرات بكثرة وسط العاصمة، أرادت أن تمارس نشاطها أمام مقهواه كما يبدو. كانت المرأة تجادله بالصراخ أيضًا وقد بدت أكثر خشونة منه، وكادت أن تلقيه أرضًا حين دفعته يديها. وقفت بينهما في اللحظة المناسبة مسندًا صاحب المقهى قبل أن يسقط، ووقف آخرون تجمّعوا فجأة، وانقادت المرأة لرجائنا أخيرًا، للممت أغراضها وانصرفت إلى مكان آخر. قال وهو يرفع ثوبه أكثر، ويتنفض من رماد كان في يد المرأة حين دفعته:

شكرًا يا خشبي.. قهوتك اليوم على حسابي أنت وصاحبك.. بالمناسبة إبليس ينتظرك بالداخل.

إبليس عند صاحب المقهى الضحية أو المضحي، الأستاذ عند جوقة في قصر الجميز وعندي سابقًا.. فقد غدا الطائر الذبيح منذ أمس، منذ أن تسلّمت عهدي وعدت إلى نقطة الصفر.

كان عدد من الصحراويين مكومين على الأرض في ركن من أركان المقهى، يشاهدون حلقة من برنامج (نداء البادية)، في تلفزيون كبير بشاشة من الكريستال، معلق على السقف، لم يكن موجودًا من قبل، ولا بدّ أضيف حديثًا بناءً على طلب الزبائن. ثلاثة من أبناء الشمال، يرتدون القمصان القصيرة والسراويل البيضاء، منشغلين

بمحاولة ضبط أوتار آلة للطنبور في يد أحدهم، ومتسول رث الشيا ب  
يمدّ يده سائلاً عن صدقة، ولا أحد يضع فيها شيئاً، وكان الروائي  
(أ. ت) يجلس إلى طاولتنا المعتادة، أمامه مغلف أبيض متوسط  
الحجم، ومنفضة ممتلئة بأعقاب السجائر. اتجهت إليه ووقف لمعانقتي  
في حرارة:

- حرفش - فرفار بعد غيبة.. اشتقت إليك يا رجل.

تصنّعت الحرارة في معانقته، وحاولت بقدر استطاعتي أن أنسى  
بأنه هدفٌ علي متابعته. ليست لدي ضغينة تجاهه في موضوع الكتابة  
بعد أن ألغيت، وسأبارك له الرواية المسروقة، فقط ساعاته لأنه احتفى  
في يوم المظاهرة، من دون أن يخبرني وأنا صديقه المقرب. جلس  
وجلس، بدأت بالكلام:

- هل هذا معقول أستاذي؟.. تحتفي ولا تخبرني.. وأبحث عنك  
كالمجنون؟

- لا تعضب يا صديقي.. أبدو شاذّ السلوك حين تأتيني لحظة الكتابة،  
صدّقني لم أقصد ولكن أنا هكذا دائماً... منذ بدأت أكتب ولا  
أستطيع أن أغير.

- لا بأس.. لا بأس.. هل أنجرت روايتك الجديدة؟

قلتها في صوت خافت، وهادئ، ولا أحس بالمغص أبداً.. لقد  
أحسست به مراراً في الأيام السابقة، رقدت به في المستشفى منهاراً،  
وكانت إعادتي للخدمة التي حدثت أمس، مثل دواء سحري، قضى  
على كلّ بادرة من بوادر المغص. جاء صاحب المقهى إلى الطاولة يحمل  
قهوتي بنفسه، وضعها أمامي، وانحنى ليلمس ساقي البديئة كما اعتاد في  
كلّ مرّة آتي فيها إلى مقهاه، ولم أمنعه قط، كنت أدعه يفعل ذلك  
بطيب خاطر.



- طبعاً أنجزتها وبسرعة غريبة.. ستعجبك جداً، في الواقع تممك شخصياً.. أنت من أوحيت لي بفكرها.

كان يقول ويدها تعبثان بالمغلف الذي أمامه، وأتأكد الآن أنني فعلاً من أوحيت له بها. لقد قالها بنفسه.. شخصية غنية قدمتها له على طبق من الذهب، كيف لا يكتبها في ثلاثة أسابيع وكانت كأنها مكتوبة. أعرف يا (أ. ت).. أعرف يا أستاذ، وبرغم ذلك لا أحقد عليك.. قلت:

- لم أكن أظن أنك ستكتب شخصية المدلّك زوج عمّي، وقد أخبرتك أنني سأكتبها، وقرأت لك بدايتها التي أخبرتني بأنها يرقة تحتاج إلى إعادة نظر، هل تذكر؟

- أي مدلّك وأي عمّة يا فرفار - حرفش؟

كان يطالعني باندهاش أقرأه واضحاً في عينيه وقد عدت إلى دقة التقصّي من جديد، حدقتا العينين متسعتان قليلاً، الرموش ارتفعت كثيراً عن موضعها، والحاجبان مقوسان، وأحسّ باندهاش أكثر منه.

- المدلّك زوج عمّتك، والمشجع حفار القبور، وغيرهما من الشخصيات الغريبة، لم تعد تستهويني، فقد استهلكتها في روايات سابقة كما تعرف، ودائماً ما أبحث عن الجديد في كلّ نص أكتبه. لقد ظهرت أنت في حياتي فجأة، وتصادقنا بسرعة غريبة، وكنت في كلّ يوم أجد في شخصيتك دافعاً لكتابتها، أنت شخصية روايتي الجديدة يا فرفار - حرفش.

- أنا؟

شعرت بأنّ حلقي قد غدا مرّاً، وقهوة المضحّي - الضحية التي أحضرها بنفسه، بلا سكر، وقد رأيته يضع فيها خمس ملاعق كاملة. شعرت بالصدمة وبأنني ظالم جداً، وأنّ دودة خدمتي التي ذكرها

المسيحي صاحب مكتبة أعلاف، لم تمت أبداً طوال تلك الشهور، ولا  
أستطيع أن أضيف حرفاً جديداً:

- أنا؟

- نعم أنت.. لقد كتبك بمتعة كبيرة.. صنعت لك ماضياً وحاضراً  
ومستقبلاً. شيء من الواقع، شيء من الخيال. هل تعرف أين كنت  
أقيم كل تلك الفترة؟.. ستستغرب. لقد استأجرت غرفة الحارس  
في الميدان الرياضي قرب بيتك، ودفعت له إيجار غرفة أخرى ينام  
فيها، كنت أريد أن أكون قريباً من موضع الإلهام حتى أكتب  
جيداً.. ستجد نفسك فرفاراً آخر في روايتي، فيه أشياء منك  
وأشياء ليست منك. أشكرك يا فرفار -حرفش.. أشكرك بشدة  
وأهدي إليك الرواية رغم أنني لا أكتب إهداءً لأحد.

...

- بالمناسبة.. لا تغضب حين ترى في نهاية الرواية أنني جعلتك تعود  
مرة أخرى إلى الخدمة، وتندس في وسط الذين عرفوك كاتباً، ومحباً  
للكتابة، لتدوّن التقارير عنهم.. هذه ليست الحقيقة كما تعلم.. إنه  
الخيال الذي طالما حدثك عنه، الخيال الذي يعطي الكتابة طعمها.  
وجدها نهاية مثالية.. والآن سأقرأ لك الفصل الأول.. الأول فقط  
وأتركك متشوقاً حتى ينشر الكتاب.

كان قد فتح المغلف الأبيض، أخرج مجموعة من الأوراق البيضاء  
مكتوبة بخط أسود أنيق.. واستطعت وأنا على حافة الانهيار أن ألمح  
على الصفحة الأولى:

صائد اليرقات

رواية.

## أعمال أمير تاج السر الإبداعية

### رواية:

- كرمكول 1988
- سماء بلون الياقوت 1996
- نار الزغاريد 1998، 2000
- عواء المهاجر 2001
- صيد الحضرمية 2001، 2002
- مهر الصياح 2004، 2009
- زحف النمل 2008
- توترات القبطي 2009
- العطر الفرنسي 2010

### سيرة:

- مرايا ساحلية 2000، 2003
- سيرة الوجد 2002

### شعر:

- أحزان كبيرة 2005

---

للتواصل مع المؤلف

[amirelsir@yahoo.com](mailto:amirelsir@yahoo.com)

---